

الأدب الساهر

د. نبيل راغب



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٠
مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الخاصة)

الأدب الساخر

د. نبيل راجب

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة الإدارة المحلية

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ : هيئة الكتاب

الغلاف

والإشراف الفني:

الفنان : محمود الهندي

المشرف العام :

د . سمير سرحان

الأدب الساخر

لوحة الغلاف

اسم العمل الفني : فرح زليخا (١٩٤٨)

التقنية: زيت على كرتون

المقاس: ٦٨×٩٦ سم

عبد الهادي الجزار (١٩٢٥-١٩٦٦)

مصور مصري من مؤسسي جماعة الفن المعاصر، حصل على منحة دراسية لإيطاليا مدة أربع سنوات؛ وهو فنان متميز، يمتلك صيغة فنية مصرية، ويجيد رسم رائحة البخور والرطوبة، مبتعداً في أغلب الأحيان عن الهواء الطلق. يرسم أبطال العالم الأسطوري برموز ومفردات وليدة الأحياء الشعبية، يضع أبطاله في مقدمة اللوحة، مستعيناً بالإضاءة الداخلية. فزليخة هي تلك البائسة المتمسكة بالأمل المفقود كأنه الوردة الحمراء؛ تقف بجوارها ابنتها التي تمسك بتلابيب جلبابها، وتنظر القطرة البيضاء. في ذات الوقت. إلى الفراغ اللامتناهي، يتم كل ذلك من خلال كثافة لونية ذات تأثيرات درامية تبرز قيمة الطقوس التي تمارس في الأحياء الشعبية.

محمود الهندي

وتمضى قافلة «مكتبة الأسرة» طموحة منتصرة كل عام،
وها هي تصدر بصفة مستمرة طول العام برعاية كريمة من
السيدة سوزان مبارك تحمل دائماً كل ما يثرى الفكر
والوجدان... عام جديد ودورة جديدة واستمرار لإصدار
روائع أعمال المعرفة الإنسانية العربية والعالمية فى تسع
سلاسل فكرية وعلمية وإبداعية ودينية ومكتبة خاصة
بالشباب. تطبع فى ملايين النسخ التى يتلقفها شبابنا
صباح كل يوم.. ومشروع جيل تقوده السيدة العظيمة
سوزان مبارك التى تعمل ليل نهار من أجل مصر الأجل
والأروع والأعظم.

د. سمير سرحان

فصول الدراسة

صفحة

مقدمة:

- الفصل الأول: عنصر السخرية فى الأدب ١٣
- الفصل الثانى: أدوات التهكم وأساليبه ٤١
- الفصل الثالث: الفكاهة سلاح اجتماعى ٥٣
- الفصل الرابع: اللماحية بين الفكر والفن ٦٩
- الفصل الخامس: الإرتياح الكوميدي ٨١
- الفصل السادس: المرح والشخصية المصرية ٩٣

مقدمة

هناك فرق بين الأدب الساخر كفهوم شامل سواء على مستوى الشكل أو المضمون وبين عنصر السخرية الذى يمكن أن يوظفه الأديب فى عمل من أعماله بالإضافة إلى عناصر أخرى. لكن عندما تصبح السخرية هى العنصر الأساسى فى المضمون والعمود الفقرى للأحداث والمواقف، فإن العمل يتنصوى تحت بند الأدب الساخر. وعلى الرغم من الفروق النوعية بين السخرية كعنصر وبين العناصر الأخرى من تهكم، وفكاهة، ولماحية، ونقد، وهجاء، وتلميح، ودعابة، فإن السخرية إذا سيطرت وسادت على كل عناصر العمل الأدبى سواء أكان قصيدة أو مسرحية أو رواية أو حتى مقالة، فإنها توظف عناصر التهكم والفكاهة واللماحية والكوميديا فى تعميق توجهاتها الفكرية والاجتماعية والفنية، وذلك من خلال توليفة درامية تهدف إلى التعريض بشخص ما أو مبدأ

أو فكرة أو أى شىء، وتعريفه بإلقاء الأضواء على الثغرات والسلبيات وأوجه القصور والضعف فيه.

والهدف الأولي للأدب الساخر هو هدف تصحيحي سواء على المستوى الأخلاقي أو المستوى الجمالي. ويختلف في لهجته وتوجهه ومنهجه عن كل أساليب التعبير الأخرى التي تهدف إلى الرفض أو الشجب أو الهجوم أو التقليل من شأن الموضوع المطروح لسهام الكاتب أو المتحدث بأسلوب مباشر وأحياناً فج. ولذلك يعتمد الأديب أو الكاتب الساخر على أسلحة التهكم واللامحية والفكاهة والكاريكاتور والكوميديا المستترة وغير المباشرة، وأحياناً الخفية الخبيثة الزاخرة بالغمز والهمز واللمز والتلميح الذي يمكن أن يتطرق إلى حد التجريح.

ولعل الأدب الساخر منذ تبلور منهجه كشكل فني وفكري متعارف عليه، كان يهدف إلى إصلاح المجتمع وتطويره من خلال إثارة المضحكات أو الابتسامات على أقل تقدير، وذلك باستخدام أية أداة متاحة. فالغاية عند الأديب الساخر تبرير الوسيلة، وإن كانت لا تنفصل عنها، مثلما لا يمكن الفصل بين الشكل والمضمون. ومناهج السخرية لا حصر لها، فأحياناً تهدف إلى ترسيخ نظام أو منهج فكري معين مضاد للمنهج السائد، وأحياناً تسعى لتمرير رؤية اجتماعية، وأحياناً تهاجم شخصاً بعينه، وغير ذلك من الأهداف التي لا تتوقف السخرية عن التفتيش عنها وكشف حقيقتها للناس بهدف تنويرهم ومساعدتهم على تكوين رأى عام تجاه قضية معينة تهمهم وتؤثر في حياتهم.

وهذا الكتاب يتناول بالدراسة والتحليل عنصر السخرية فى الأدب كأحد العناصر التى لجأ إلى استخدامها كثير من الأدباء عبر العصور، والفروق النوعية بين السخرية وكل من التهكم والفكاهة واللماحية. وذلك كنقطة انطلاق للإحاطة الفكرية والنقدية للمفهوم الشامل للأدب الساخر الذى يوظف كل هذه العناصر حتى يصل بالإنسان إلى آفاق فكرية واجتماعية وإنسانية لم يبلغها من قبل، ويسلحه بالوعى الذى يمكنه من رؤية الأشياء فى ضوئها الطبيعى وحجمها الحقيقى، فيسير بخطوات ثابتة واثقة فى الاتجاه الصحيح، ويتجنب الدخول فى مآهات جانبية، وطرق مسدودة، ودوائر مفرغة، تشتت طاقاته وتضيع إمكاناته، وتجعل حياته بلا هدف ولا معنى.

المهندسين فى أول مايو ٢٠٠٠

د. نبيل راغب

الفصل الأول

عنصر السخرية فى الأدب

السخرية فى الأدب هى العنصر الذى يحتوى على توليفة درامية من النقد والهزاء، والتلميح، واللماحة، والتهكم، والدعابة، وذلك بهدف التعريض بشخص ما أو مبدأ أو فكرة أو أى شىء وتعريته بإلقاء الأضواء على الثغرات والسلبيات وأوجه القصور فيه. ولذلك فإن الهدف الأولى للأدب الساخر هو هدف تصحيحى سواء على المستوى الأخلاقى أو المستوى الجمالى، ويختلف فى لهجته ومنهجه عن كل أساليب التعبير الأخرى التى تهدف إلى الزقزق أو الشجب أو الثقليل من شأن الموضوع المطروح لسهام الكاتب أو المتحدث. فالواعظ مثلاً أكثر مباشرة وخطابية من الكاتب الساخر، ذلك أن تأنيبه يحمل فى طياته منطفاً أقل واستهانة أشد من الكاتب الساخر الذى لا بد أن يحرص على

الاتساق المنطقي في فكره وتعبيره حتى يسدد سهامه إلى هدفه بإحكام شديد، وفي الوقت نفسه ينأى عن التصريح باستهائنه بهدفه حتى لا يبدو منحازا أو متحيزا فتغلق أبواب القبول في وجهه.

لكن السخرية سلاح خطير للغاية في يد الناقد الذي يقوم بتحليل الأعمال الأدبية والفنية. فهي كفيلة بإغرائه بهدم بل وسحق الفنان الذي يقع تحت رحمته حتى يرضى نرجسيته في البطش بالآخرين. ولذلك يفضل أن تظل السخرية أسيرة المجال الأدبي والفني الذي يسعى لنقد البشر والظواهر الاجتماعية والإنسانية المختلفة، على أن يحرص العاملون في مجال النقد الأدبي والفني على أساليب التحليل الفكري والفني للأعمال الفنية المطروحة للنقد. فالمرج والحساسية غائبان في عمل الأديب الساخر الذي يتناول ظواهر عامة وإن تجسدت في شخصيات من إبداعه، أما الناقد الأدبي والفني فيتناول بالتحليل أعمال أديب أو فنان بعينه ولذلك يتحتم عليه أن يتمسك بالموضوعية العلمية قدر امكانه حتى يؤدي مهمته على خير وجه، فمن شأن السخرية أن تحطم الجسور القائمة بين النقد والفن، وبالتالي لا يستفيد كل منهما من الآخر.

والكاتب الساخر يعتمد بصفة دائمة على أسلحة التهكم المستترة الخفية الخبيثة الزاخرة بالغمز والهمز واللمز والتلميح الذي لا يتورع عن التجريح. وهو يستعين بكل أساليب الدبلوماسية الذكية التي تستقطب كل حلفائه والمتعاطفين معه والمنتمين إلى فكره ضد أعدائه المستهدفين لهجومه. ولا تحمل كل الكتابات الساخرة بالضرورة روح الاستهزاء

والاستهانة والهجاء القاسى، بل كثيراً ما يلجأ الكاتب الساخر إلى عنصري المواجهة والتناقض فى دحض بعض العقائد والأفكار البالية، وكشف وتعرية بعض الأنماط البشرية المثيرة للاحتقار والاشمئزاز، وذلك بوضعها وجها لوجه أمام الأفكار التى انطلقت بالبشرية من عصور الانحطاط والجهل والظلام إلى آفاق التقدم والعلم والنور، وأمام الأبطال الذين ضربوا المثل العليا فى شتى الميادين الإنسانية.

والكاتب الساخر بطبيعة منهجه رابض فى كمين يتيح له التربص بأعدائه كي يصيبهم فى مقتل دون أن يضطر إلى الدفاع عن نفسه فى مواجهتهم. ذلك أنه لو منحهم فرصة ضربه أو حتى طعنه فى الخلف فإنه بهذا يفقد القدرة على استقطاب مؤيديه ضد خصومه. ولذلك يتكون كمينه من الحجة اللاذعة، والمنطق المتماسك، والنظرة الثاقبة، والرؤية الشاملة، والثقافة العميقة. كذلك فإن الأديب الساخر قادر على أن يدفع جمهوره إلى القيام بعملية نقد ذاتى لحماقاته وتفاهاته وسخافات دون أن يدري، ولذلك فهو يضحك من نفسه متصوراً أنه يضحك من ظواهر عامة لا تمت إليه بصلة، أى أن الحساسيات كلها تزول لتتألق النظرة الموضوعية إلى الأشياء.

وعلى الرغم من أن هناك فقرات فى التوراه، وأشعار هوميروس الملحمية، تتميز بروح السخرية الواضحة، وعلى الرغم من أن مسرحيات أريستوفانس الكوميديّة زاخرة بالطلقات الساخرة الثقيلة، فإن أول كتابات ساخرة تخضع للمواصفات النقدية للسخرية كانت باللاتينية، فقد كان الكاتب الرومانى لوسيلياس المتوفى عام ١٠٣ قبل

الميلاد رائد فعليا في هذا المجال . فلم تكن كتاباته مجرد تعليقات ساخرة عابرة على الظواهر الاجتماعية المؤقتة الطارئة ، بل حاول أن يصل بمشروط السخرية إلى أغوار النفس البشرية كي يستأصل كل ما يعوق العقل الإنساني عن النظرة الصائبة إلى الأمور ، وأرسى بذلك التقاليد الأولى لهذا الفن الذي دعمه بعد ذلك هوراس المتوفى عام ٨ قبل الميلاد ، وبيرسيوس المتوفى عام ٦٢ بعد الميلاد ، وجافينال المتوفى عام ١٤٠ بعد الميلاد من خلال قصائدهم التي كتبت خصيصا للسخرية من الأنماط والأفكار السائدة . وكان الناقد الروماني كوينتيليان المتوفى عام ٩٥ بعد الميلاد بمثابة أول ناقد استطاع أن يضع يديه على الخصائص الفنية للأدب الساخر ، ويمهجه لتسرى بعد ذلك في نسيج الأدب العالمي وتقاليده .

وقد أطلق مصطلح «السخرية» لقرون متصلة على القصائد الطويلة الزاخرة بالمواقف والصور لتمييزها عن القصائد القصيرة المركزة التي تحتوى على حكم وأمثال . وغالبا ما نهضت القصائد الساخرة على حوار من وزن شعري معين ، لتدين وتسخر من الرذائل والسخافات المنتشرة في المجتمع . وكان هوراس قد ألف النماذج الأولى للقصائد الساخرة التي تتميز بالرفقة والتعاطف والنظرة العامة الشاملة في حين أرسى جافينال تقاليد الكتابة الساخرة القاسية التي لا تعرف الرحمة أو أنصاف الحلول .

وفي العصور الوسطى أغرم الناس بالقصائد الساخرة التي كتبها الشعراء من أبناء الأقاليم والبلاد المختلفة برغم سيطرة الروح الديني

المتزمت الذى يحاول أخذ كل الأمور بجدية قاتلة. فقد ألقت القصائد التى تحتوى على التقليد الساخر للأمور والأنماط التى يعتبرها التقليديون فى منتهى الجدية، والأساطير، والأحلام، والرؤى التى تستخدم الخيال للسخرية من الواقع.

ومع عصر النهضة التى أصبحت القصائد الساخرة لكل من هوراس وجافينال من النماذج التى حذا حذوها كثير من الأدباء فى معظم اللغات الأوروبية. لكن مع حلول فترة الكلاسيكية الجديدة انتشرت القصيدة الروائية التى تمزج البطولة بالتهكم بهدف نقد النفس البشرية التى يمكن أن تجمع داخلها أروع آيات البطولة وأحط أنواع الرذيلة فى الوقت نفسه، سيرا على نهج قصيدة «معركة الضفادع والفئران» التى كتبت تقليدا لأسلوب هوميروس، واعتمادا على حوادث الحيوانات والوحوش التى عرفتھا العصور الوسطى، ولكن فى اتجاه النقد الاجتماعى اللاذع، مثلما نجد فى قصائد تاسونى وبوالوديبرو فى كل من ايطاليا وفرنسا. أما فى انجلترا فقد برز النموذج الشعرى الذى يمزج البطولة بالتهكم من خلال التناقض الحاد بين المظهر الأخاذ البراق والجوهر التافه السخيف فى قصيدة الكسندر بوب «اغتناب خصلة الشعر»، وفى قصيدة «هاديبراس، لباتلر التى تمزج الملحمة بالتقليد الساخر الضاحك. أما فى أمريكا فإن أوضح نموذج للكتابات التى تهدف أساسا للسخرية يتمثل فى كتاب «أسطورة للنقاد» لجيمس راسل لويل.

وكان لوم الإنسانية وتوبيخها وزجرها خاصية أساسية فى أعمال أدبية كثيرة لا تمت للشعر الساخر بصلة. فمثلا يمكن تتبع تقاليد

البيرليسك الدرامى ابتداء من مسرحية «الصفادع» لأريستوفانس وحتى المشاهد الصاخبة الضاحكة الراقصة التى تقدم فى علب الليل، أما على منصة المسرح الجاد المحترم فقد زخرت مسرحيات بن جونسون، وموليير، وبرنارد شو، ويوجين أونيل بفقرات مشحونة بالسخرية اللاذعة والمريرة المكتوبة بالنثر بعيدا عن تقاليد الشعر الساخر.

لكن يمكن تتبع النثر الساخر بعيدا عن الحواريات المسرحية فى كتابات لوسيان المتوفى عام ١٨٠ بعد الميلاد، فقد كتب فقرات وصورا ذات تأثير ساخر نفاذ، واستطاع أن يبتكر النموذج الرائد لسرعة البديهة، واللماحية، والبرزانة، والأصالة لمفكرى عصر النهضة الذين أرسوا دعائم مذهب الإنسانية وفى مقدمتهم إيرازموس، والذين رفضوا التحلى بالصبر فى مواجهة صغائر الإنسان وحماقاته. وفى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ظهرت فئة من المهرجين الجواله العاشقين للثقافة والفكر الساخر فى ألمانيا وفرنسا وإنجلترا، ونبغت فى الأشعار الغنائية الساخرة أو الزجلية التى انتشرت وشاعت على ألسنة الناس، وبلغت قممتها فى أعمال الأديب الفرنسى رابليه. وكانت خفة ظلها، وروحها المرحية، وسخريتها اللاذعة الذكية سببا فى انتشارها فى آداب العالم الغربى حتى عصرنا هذا.

أما أشهر الكتابات الساخرة فى العصور الحديثة فقد برزت فى مجال الرواية من خلال أعمال رابليه، وسيرفانتس، وسويفت، وفولتير، وصامويل باتلر. فقد تجلت السخرية اللاذعة أو الرحيمة فى مواقفهم وشخصياتهم التى جسدت ثغرات الضعف الإنسانى فى لحظات

الإغراء، والخسة، والغرور، والوهم، وخداع النفس. وإذا كان هذا العنصر الساخر أقل وضوحاً في روايات فيلدنج، وثاكرى، وديكنز، وسنكلير لويس، لكن من الصعب إنكار وجوده الفعال.

وفن السخرية ليس مرتبطاً فقط بالتعبير بالكلمات، بل يمكن أن نجده في الرقص، والموسيقى، والفنون التشكيلية، فمثلاً نجد دوميه الذى عاش فى عصر الإمبراطورية الثانية فى فرنسا، وتناول كثيراً من ملامح عصره بالسخرية فى رسوماته، وكذلك وليم هوجارث الرسام الانجليزى المعاصر لألكسندر بوب وصامويل جونسون.

ومع تراجع الشعر الساخر فى عصرنا هذا ليحل محله زجل اللعب بالألفاظ، والتلميحات التى تجنح إلى السوقية والبذاءة فى بعض الأحيان، فإن النثر الساخر فى الروايات تراجع أيضاً ليترك مكانه للمذهب الطبيعى الذى يسعى لتشريح المجتمع من خلال توثيق ملامحه، وتحليل القوانين الكامنة خلف هذه الملامح والمحركة لها اعتماداً على العلوم الحديثة مثل علوم الاجتماع والأحياء والاقتصاد والنفس. لكن السخرية كفن عريق أصيل، يوجه سهام النقد اللاذع للزئابل والحقاقات البشرية، لم يندثر، بل وجد لنفسه منفذاً واسعاً فى فن الكاريكاتير المعاصر، سواء على مستوى الكلمة أو الصورة أو الرسم.

ولعل فلسفة فن السخرية كانت منذ بدايته تهدف إلى اصلاح المجتمع وتطويره من خلال إثارة الضحكات أو الابتسامات على أقل تقدير، وذلك باستخدام أية أداة متاحة.. فالغاية تبرر الوسيلة فى مجال السخرية، وإن كانت لا تنفصل عنها. ومناهج السخرية لا حصر لها،

فأحيانا تهدف إلى ترسيخ نظام فلسفى معين كما فى قصة «كانديد، لقولتير، وأحيانا تسعى لتعرية رذيلة اجتماعية مثل النفاق كما فى مسرحية «طرطوف، لموليير، وأحيانا تهاجم شخصا بعينه كما فى قصيدة «ماك فليكونى، لدرayدن.

لكن هناك من النقاد من سخر من السخرية ذاتها بقوله إنه إذا كانت السخرية انجازا خالدا فى مجال الأدب، فهذا أكبر دليل على فشلها وتفاعسها فى ميدان علم الاجتماع، ذلك أنها إذا كانت قادرة بالفعل على محو الرذائل والحماقات التى تهاجمها وتحاربها، فإنها بذلك تصبح مجرد أداة تنتهى بانتهاء الغرض منها. لكن عدم جدوى السخرية فى استئصال شأفة الرذائل البشرية والحماقات الاجتماعية، يمنحها فى الوقت نفسه القدرة على مواصلة بل وخلود دورها فى مجال الأدب الإنسانى. فمثلا إذا كانت مسرحية «طرطوف، قد نجحت فى القضاء على النفاق الدينى، فلا بد أن تصبح الآن مجرد مسرحية تاريخية تنتمى إلى فترة بعينها. لكنها لا تزال فعالة، ومؤثرة، ومسلية، ومثيرة لأن أوجه النفاق الدينى لا تزال مزدهرة فى شتى مناحى النشاط الإنسانى.

والسخرية تملك من المرونة ما يجعلها قادرة على استخدام أى شكل من الأشكال الأدبية بل والفنية، فهى يمكن أن تتراوح بين قمة الجدية وقاع الهزل من خلال أساليب وزوايا لا تحصى. وغالبا ما تلمح بالإشارة والإسقاط والغمز إلى موضوعات الساعة، خاصة السياسية منها، وصور وملامح مادية ملموسة تلقى تقديرا واحتراما من الناس

دون مبرر منطقي معقول، وجوانب كئيبة من المجتمع يسعى الكثيرون إلى تجاهلها، وشخصيات برزت على السطح بوسائل انتهازية وإرهابية حقيرة. وأحيانا تهاجم السخرية الفساد في عقداره مستخدمة أسلحة الهجاء الفاحش، إذ إن التعفن عندما يصل إلى قمته، فإن التورية، والتلميح، والغمز، واللمز تصبح أسلحة غير فعالة بالمرّة. ومع ذلك فإن من السهل وضع حد فاصل بين الهجاء الفاحش والإهانة والسباب الصريح وبين السخرية كفن له أصوله وأسراره. فاللماحية والتلميح الذكي واصابة الهدف بأقل قدر ممكن من التجريح من الشروط الأساسية التي يجب أن تتوافر في فن السخرية.

ولعل للسخرية جانبها السيكولوجي المتفرد الذي لا يرتبط بالتقاليد الأدبية فنحن ربما نتحدى أو نرهب الأشياء التي تهددنا وتخيفنا، لكننا لا نضحك منها، أما عندما نضحك من شيء، فهذا دليل على شعورها تجاهه بالتفوق والسيادة. ومن هنا كان الكاتب الساخر يهاجم ضحيته دون أن يمنحها شرف أخذها على محمل الجد، بحيث نشاركه الضحك من سلبياتها وكذلك احساسه بالتفوق عليها.

ومع ذلك فالسخرية ليست بالضرورة مثيرة للضحك، لأنها يمكن أن تكون مرة، خاصة عندما تهاجم الجانب المتجه من المجتمع. وربما أثارت ابتسامة المتلقي، لكنها ابتسامة مريرة ساخرة من الأوضاع المقلوبة للمجتمع. وهذا ليس أمرا غريبا، فليست كل ابتسامة تعني السعادة والإنشراح، وغالبا ما تحمل ابتسامة السخرية شحنات من الأسى والهم، تفوق في درجتها وكثافتها الشحنات الكامنة في البكاء والعويل.

ومع ذلك، فمثل هذه الابتسامة الساخرة المريرة تمنح صاحبها نفس الشعور بالتفوق والسيادة.

وفي عالمنا العربي كانت السخرية من الملامح المميزة للأدب بصفة عامة والشعر بصفة خاصة ابتداء من العصر الجاهلي حتى العصر الحديث، ومع ذلك لم تجد من يتصدى لها بالدراسة العلمية التحليلية سوى بعض نقاد وكتاب في الخمسين سنة الأخيرة، سواء بدراسة الظاهرة ككل كما نجد في كتاب شوقي ضيف الممتع «الفكاهة في مصر» أو بدراسة انجازات رواد السخرية كما نجد في كتاب أحمد كمال زكي «الجاحظ»، وكتاب جمال الدين الرمادى «عبد العزيز البشري»، وكتاب نعمات أحمد فؤاد «أدب المازنى»، وغيرها من الكتب التى تناولت الجانب الساخر فى انجازات هؤلاء الكتاب والأدباء.

ويحدد شوقي ضيف مفهومه للسخرية فيصفها بأنها أرقى أنواع الفكاهة لما تحتاج من ذكاء وفاء ومكر، وهى لذلك أداة دقيقة فى أيدى الفلاسفة والكتاب الذين يهزأون بالعقائد والخرافات، ويستخدمها الساسة للكناية بخصوصهم وهى حينئذ تكون لذعا خالصا. كذلك هناك ضرب من السخرية لا يعتمد على كائنات ولا على حروف، وإنما يعتمد على الألوان والخطوط والظلال والأضواء، وقد شاع فى القرنين الأخيرين بأوروبا، ونقلناه عنها، وكان لنا منه حظ فى عصورنا القديمة، ويقصد به شوقي ضيف التصوير الساخر «الكاريكاتورى» الذى يقف عند جوانب الضعف فى جسد شخص أو فى وجهه، ويكبرها كأنما يريد أن ينمى الضعف أو العيب الذى يكمن فيه إلى أقصاه، فنراه ينتهز

فرصة، مثل تقويس حاجب، أو انحناء أنف، أو تجعد جبهة، أو انتفاخ خد، أو طول ذقن، أو ضيق عين، ويكبر ذلك مشوها ومستغلا للطبيعة والخلقة، وبذلك تصبح الصورة الساخرة قوية التعبير عن صاحبها، وفي الوقت نفسه تصبح مضحكة لما أظهره الرسام من تنافر في أوضاع الجسد أو الوجه، وهذا التنافر لا بد أن تكون له دلالة في تكوين الشخصية وأخلاقياتها.

ولا شك أن فن السخرية يربى في الناس ملكة النقد، ويوقظ فيهم الوعي بأخطائهم وحمائاتهم. فهو يدفعهم إلى الضحك من كل ما يحسون فيه مخالفة للطبيعة الإنسانية السوية، فيضحكون من المغفل والجاهل والبخيل والجبان والفوضوى والشارد... الخ. وضحك السخرية يمتزج أحيانا بالإزدراء، أو الإعجاب، أو الهزل، أو الانتصار، أو العطف.. الخ. وهذا الضحك تصحيح لانحرافات مختلفة أو قصاص عادل منها لشذوذها على المجتمع السوى. ولذلك فالسخرية عقاب وقصاص وتأديب ينتقم بها المجتمع ممن يتناولون على منطقهم ومعقله.

ويتتبع شوقي ضيف جذور فن السخرية حتى العهد المصرية القديمة في كتاب «مصر والحياة المصرية في العصور القديمة» الذي وضعه أحد كبار المستشرقين الألمان، وضمنه عشرات الرسوم والصور التي تنبئ من تغفل روح السخرية عند قدماء المصريين، برغم أن نكهتهم ونواديرهم لم تصل إلينا. فمن ذلك صورة هزلية لسيدة تتزين، وقد أمسكت المرأة بيدها اليسرى، وفي نفس اليد «الحق» الخاص بصبغ

الشفاه الأحمر، وفي اليد الأخرى ريشة تطلى بها شفثيها، وكل ذلك فى وضع مثير للسخرية من مبالغة النساء فى تجميل أنفسهن . وفى صفحة أخرى صورة ساخرة لرجل أصلع ولحية طويلة تمنحه الكثير من مظاهر التقوى والورع والمهابة، وهو يمد كفيه مدافعا عن لحيته ضد من يحاول حلقها أو تشذيبها وفى صفحة ثالثة صورة ساخرة أخرى بذئب يرعى ماعزا وكأن الفنان يعبر عن المثل المصرى الشعبى المعروف «حاميتها حراميتها»، كذلك نرى رسما لجيش من الجرذان يحاصر قلعة للقطط فى حين تقدمت فرقة فدائية، فمدت على القلعة سلما إعتلاه فدائى جسور. وهناك صورة تمثل مباراة فى لعبة الشطرنج بين أسد وغزال، والغزال يأمر الأسد بأن «يكش الملك»، والأسد مكش عن أنيابه والشرر يتطاير من عينيه . وهناك أيضا صورة أمير وأميرة بونت أمام فرعون لتقديم فروض الطاعة حيث يتضخم النصف الأسفل للأميرة وتأخر فى وضعه عن النصف الأعلى، فأصبح شكلها مثيرا للسخرية والضحك.

ومع قدوم الغزاة: الفرس واليونان والرومان إلى مصر طمعا فى ضمها إلى امبراطورياتهم لجأ المصريون إلى السخرية القاسية المريرة ينفسون فيها عن مراحل القهر والكبت التى كانت تغلى داخلهم، خاصة مع الفرس الذين عرفوا بالقسوة والبطش وتصفية كل من يخالفهم فى الرأى. أما البطالسة فعلى الرغم من أنهم توددوا إليهم وبذلوا كل ما استطاعوا ليكسبوا ودهم وحبهم، فإن المصريين، وخاصة أهل الأسكندرية لم يتركوا فرصة تمر بهم دون أن يسخروا منهم فى قصائد ألفها شعراء مجهولون وتناقلتها الألسنة حتى بلغت مسامع البطالسة أنفسهم. وكذلك أغرموا بإطلاق ألقاب مضحكة عليهم، فلقبوا بطليموس

الأول بلقب الزمار، أما بطليموس الثانى فسلطوا عليه أقذع أنواع
السخرية خاصة عند زواجه من أخته . وقد لفتت هذه الظاهرة نظر
الشاعر اليونانى الرعى الشهير ثيوكرىاس الذى عاش فى الأسكندرية
فى القرن الثالث قبل الميلاد فوصف المصريين بأنهم «شعب ماكر»
لاذع القول، مرح الروح» .

واستمر المصريون فى استخدام سلاح السخرية بطول عصر
الرومان، فلم يسلم قيصر من قياصرتهم، سواء زار مصر أو ظل فى
روما، من سهام سخريتهم المريرة بل والمسمومة، فمثلا لقبوا القيصر
فسبسان بلقب تاجر السردين، وقالوا إنه لا يساوى بضعة مليمات فى
سوق الرجال، فى حين لقبوا قيصر آخر بلقب النسناس المدلل الصغير.
ولم يقف الرومان مكتوفى الأيدى أمام هذا السلاح السرى، فضاغفوا
من قسوتهم وبطشهم، لكن المصريين واصلوا السخرية بهم حتى دالت
دولتهم .

أما فى البادية العربية فكان شعر الهجاء من أوضح صور السخرية
بالخصم، وكان قاسيا، عنيفا، مريرا يتناسب مع ضراوة الحياة فى
الصحراء التى لا تعرف الرحمة . وظلت السخرية قاصرة على شعراء
الهجاء الذين سخروها للدفاع عن القبيلة والاستهزاء بقبيلة الخصم، حتى
جاء الإسلام ليتحول الهجاء صوب كل من قاوموا الدعوة الدينية
الجديدة . لكن تقاليد فن السخرية ترسخت فى الأدب العربى على يدى
الجاحظ فى القرن الثانى الهجرى، القرن الثامن الميلادى، الذى أوضح
المنهج الجديد لفن السخرية بقوله إن ما يظنه الإنسان كمالا فى بعض

الأحيان ليس كمالات، وما يوضع موضع التقديس ليلا لا يلبث أن ينهار إذا اطلع عليه النهار، وتلك هي الحياة. ويصفه أحمد كمال زكي في كتابه «الجاحظ» بأنه لا يملك سميت المحدثين، ولا له تقواهم وبرهم، وهو إلى المتكلمين أميل وإلى جدلهم أحب. ومن وناحية أخرى لا يكاد يعرف، ويفتقد القدرة على منع لسانه من أن يلغ في دماء من يعرفه ومن لا يعرفه، بل قد ينتهي به الأمر إلى التعريض بنفسه هو.

وفي كتابه «البخلاء»، كان الجاحظ رائدا في فن السخرية عندما سرد قصصا شتى عن البخل والبخلاء، بل وفي كتبه الأخرى التي لا تكاد تخلو من روح السخرية التي تسرى بين السطور إذا لم تسر فيها. ولم تكن سخريته لمجرد إثارة الضحك والإزدراء، وإنما كانت أدواته للغوص إلى أعماق الأشتياء ولإلقاء الأضواء الكاشفة على مثالب الفرد وعيوب المجتمع. وكان يقول «لا يغضب من المزاح إلا كز الخلق، ولا يرغب من المفاكهة إلا ضيق العطش»، ثم يضيف «الجد مبغضة والمزاح محبة».

وعندما استقلت مصر في عهد ابن طولون عن الخلافة العباسية، بزغ نجم شاعر ساخر عرف بلقب الجمل الأكبر، وكان نديما للأمرء يروى لهم النوادر والملح التي دارت حول البخلاء والتنازلة والطفيليين. وفي عصر الإخشيد خلفه شاعر ساخر آخر لقب بالجمل الأصغر كان يتمتع بنفس خفة الروح الساخرة. لكن نجم السخرية في الدولة الإخشيدية كان الشاعر الذي لقب بسيبويه المصري الذي تظاهر بالحمق والجنون كي ينقد في قصائده اللاذعة الدول الأجنبية وموظفيها

المرتزقة، نقدا زاخرا بالمرارة والخبث، ومنفسا عما يقع على الناس من ظلم ويطش.

ولم يكن سببويه المصرى يسب ويهجو بألفاظ قبيحة، والناس يجتمعون حوله فى الأسواق ويضحكون، بل كان ينهر ويزجر، ويسخر، مستخدما آية قرآنية أو حديثا أو سجعا يولده لوقته. وكانت السخرية عنده تنهض على الخلط بين الألفاظ والمعانى، فيصبح مظهرا للشعوذة وتشويش الفكر، فيقول السذج: مجنون، فى حين يقول العقلاء: بل جرىء يواجه الحق ويعلنه دون تدليس أو تزييف. ولم يكن بسخريته يهدف إلى الإضحاك والترويح عن النفوس المكدودة، بل كان جادا، مؤمنا بكل كلمة قالها فى الإخشيد وبطانته عندما كان يصفه على رءوس الأشهاد بأنه «هذا الأصلع البطين، المسمن البددين، قطع الله منه الوتين، ولا سلك به ذات اليمين! أما كان يكفيه صاحب ولا صاحبان ولا حاجب ولا حاجبان، ولا تابع ولا تابعان؟ لا قبل الله له صلاة، ولا قرب له زكاة، وعمر بجثته الفلاة».

وكان وعيه السياسى حادا حدة انتقلت إلى سخريته الذكية التى تلفحت فى معظم الأحيان بأردية الوعظ والإرشاد، إذ كان فقهيا صالحا. ذات مرة باغت سامعيه أثناء وعظه إذ قال «حصلت الدنيا على أقطع وأقرع وأرقع، وكان يعنى بالأقطع ابن بويه الديلمى حاكم بغداد، وبالأقرع سيف الدولة الحمدانى حاكم حلب، وبالأرقع كافور الإخشيد، وكان قد أصبح حاكما على مصر. وكان يلقيه فى مواعظه بالخصى الذى لا يبالى، ولذلك كانت سخريته أعنف من سخرية المتنبى بالإخشيد.

أما فى العصر الفاطمى فقد تفنن الشعراء المصريون فى السخرية من الخلفاء الفاطميين، وشككوا فى نسبهم إلى فاطمة الزهراء، خاصة أن من خلفائهم من ادعى علم الغيب بل والألوهية. كذلك امتدت السخرية لتشمل أساليب إدارتهم للبلاد، خاصة توظيفهم لليهود فى المناصب الكبرى مما اضطر الخلفاء فى النهاية إلى إبعادهم عن أعمال الدولة ودواوينها. ولعل ابن قادوس الدمياطى كاتب الإنشاء فى أواخر العصر الفاطمى، أهم شاعر ساخر فى ذلك العصر، فقد هاجم كل مظاهر النفاق السياسى، والتطفل الاجتماعى، وغير ذلك من أساليب التسلق والانتهازية. وصف ذات يوم أحد المنافقين فقال:

حواله اليوم أناس

كلهم يزهى برائه

وهو مثل الماء فيهم

لونه لون إنائه

أما فى العصر الأيوبي فقد ازدهر فن السخرية برغم وطأة الحروب الصليبية فقد ابتكر القاضي الفاضل وزير صلاح الدين وكاتبه ابن سناء الملك ما يمكن أن يسمى بالسخرية التعليمية التى تعتمد على التورية الخفيفة التى لا تثير الضحك بقدر ما تثير التفكير. أما البهاء زهير الذى جاء بعدهما فقد أعاد للسخرية دعابتها المرحية وظلها الخفيف. لكن نجم السخرية فى ذلك العصر هو الأسعد بن مماتى المشرف على ديوان الجيش والمال فى عهد صلاح الدين، والذى ألف كتاب الفاشوش فى حكم قراقوش، الذى سخر فيه من قراقوش التركى أحد قواد صلاح

الدين وأصفيائه، والذي اشتهر بالغباء والشدة والقسوة . وكان صلاح الدين يسلم إليه مقاليد مصر حين يغيب عنها في حروبه الصليبية . وأورد ابن مماتى في كتابه عنه صوراً ساخرة لأحكامه التى تتميز بالحماسة والغفلة والبلاهة . ويقول المستشرق كازانوف إن ابن مماتى لم يؤلف هذا الكتاب لغرض السخرية فقط من ظلم قراقوش وغبائه بل ألفه سخطاً على الدولة الجديدة التى خلفت الدولة الفاطمية .

أما فى عصر المماليك فقد تفنن المصريون فى ضروب السخرية بل والفكاهة والنكتة بعد أن فرغت مصر أو كادت من الحروب الصليبية، وهى عهد جديد من الرخاء، أصبح فيه الشعر الساخر الضاحك سمة مميزة لنشاط معظم الأدباء . وكالعادة امتدت السخرية لتشمل الساسة والحكام الأجانب من الترك المماليك، وتراوحت السخرية بين التورية الذكية الخبيثة وبين الهجاء القاسى الصريح . وكان السلطان بيبرس بصفة خاصة هدفاً مشتركاً لمعظم الشعراء الساخرين لكراهية المصريين له بسبب نائب تترى له نال من سهام الهجاء اللاذع الكثير .

وكان من بين أمراء المماليك أمير يدعى طشتمر، لقبه العامة باسم «حمص أخضر»، فاستغل الشعراء هذا اللقب ليسخروا منه . قال أحدهم عندما عاد طشتمر من سفر:

لما رجعت إلينا

من بعد ذا البعد والبين

خلناك تحنو علينا

يا حمص أخضر (بقلبين)

ومعروف أن الحمص ذو قلبين مجموعين. ويقول فيه شاعر آخر
متما للنكتة في اسمه أو في لقبه:

وبالدنا حزت مالا

ملأت منه الخزانة

وكم عليك قلوب

يا حمص أخضر (ملانة)

وتوسع الشعراء في فن السخرية القائمة على التورية اللفظية أثناء هذا العصر، فلم يكن اللعب بالألفاظ بهدف توليد النكتة فحسب، بل كانت السخرية والنقد اللاذع هدفاً حقيقياً. وتتميز العصر بدخول الحرفيين في مجال ممارسة الشعر الساخر فاشتهر الوراق والحمامي والجزار بحرفهم وفنهم الشعري في الوقت نفسه. كذلك شاع الزجل الساخر الزاخر بالهزل نظراً لقرب لغته إلى نفوس العامة. وكان ابن سودون مؤلف «نزهة النفوس ومضحك العيوس» أشهر الزجالين الساخرين في ذلك العصر ومعظم هذا الديوان من الشعر العامي الشعبي الذي لا يكاد يفترق في لغته عن لغتنا المصرية الدارجة الحديثة. فكثير من أمثال هذا الديوان وألفاظه لا تزال جارية على الألسنة في عصرنا الحالي.

كذلك عرفت مصر والشعوب العربية المسرح الشعبي القديم الذي عرف باسم خيال الظل، والذي تحول فيما بعد إلى «الأراجوز» الذي يعتقد أنه تحويل لكلمة «كراكوز» التي كانت تطلق في الشام وتركيا على خيال الظل والتي اشتقت من اسم قراقوش الذي سخر منه ابن ممتي في كتابه «الفاشوش في حكم قراقوش». ويقال إن مسرح خيال الظل تسرب

من الصين إلى المنطقة العربية في القرن السادس الهجرى، وازدهر في عصر المماليك في القرن التالي لدرجة أن شاعراً كبيراً عرف بابن دانيال خصص حياته لهذا المسرح الساخر الهازل فألف له ثلاث مسرحيات: «طيف الخيال»، «عجيب وغريب»، و«متيم» في عهد الظاهر بيبرس، فسخر من الحياة الاجتماعية والثقافية في الأولى، وسخر من الأجناس والحرف المتعددة التي زخرت بها مصر في الثانية، وسخر من حيل المحبين من أجل الوصال في الثالثة.

وبحلول العصر العثماني المظلم وتحول مصر إلى ولاية عثمانية، ساءت أحوالها الاقتصادية والعلمية والأدبية، ومع ذلك ازدهرت السخرية السياسية بصفة خاصة. فمثلاً ألف شاعر يدعى يوسف الشربيني قصيدة طويلة بالعامية في كتاب بعنوان «هز القحوف»، وصف فيها حياة رجل الريف في عصره بجميع صورها وألوانها من أكله إلى عمله في حقله، إلى قهر الحكومة له، وهو يعبر عن ذلك في فنون طريفة من السخرية الهازلة. وفي الواقع فإن القصيدة ليست خفيفة الروح، وإنما الخفيف والطريف حقاً شرحه لها، الذي دار حول تقاليد أهل الريف الواقعيين تحت نير العثمانيين الذين نهبوا أرضهم، وساموهم أبشع أنواع العذاب.

أما العصر الحديث الذي يمكن تحدده بأواخر القرن الماضي، فكان امتداداً حياً للعصور السابقة في ميدان الأدب الساخر الذي شهد نجومًا جددًا من أمثال الشيخ حسن الآلاتي المتوفى عام ١٨٨٩ والذي بدأ حياته بالدراسة في الأزهر، ثم تحول إلى الغناء، وألف كتاباً بعنوان

«ترويح النفوس» فى جزءين، وضمنه الأزجال الفكاهية التى تسخر من سلبيات المجتمع كما تمثلت فى أنماطه المختلفة. يقول فى مقدمته إنه اتخذ وجماعة من رفقاته الساخرين مقهى فى حى الخليفة سموه «المضحكانة»، كانوا يجتمعون فيه على التقليل والتندير والفكاهة، وقد نصب نفسه رئيسا على الجماعة، ثم يأخذ فى قلب المواقف الجادة من مثل الدعارى والعرضحالات إلى مواقف هازلة ساخرة من أجل نظرة جديدة إليها.

ولم يكن هناك أديب أو شاعر إلا وشارك فى كتابة الأدب الساخر، مثل محمد عثمان جلال مترجم موليير فى القرن التاسع عشر. كان خفيف الروح، ميالا للدعابة والسخرية، ولعل هذا ما دعاه إلى ترجمة موليير. تأخرت تربيته فى عهد رياض باشا ناظر النظار، فكتب إليه:

الخير على الناس عم وفاض

وكل إنسان استكفى

ويس أنا يا عم رياض

وقعت من خرق القفة

ومع ظهور الصحف اليومية فى عهد اسماعيل، صدرت صحف هزلية ساخرة، اطلع كتابها على الصحافة الأوروبية واقتبسوا مما فيها من سخرية ونقد لاذع فى السياسة وفى المجتمع، وبذلك انتقل الأدباء والشعراء من مرحلة السخرية الخفيفة الهازلة إلى السخرية الجادة المفكرة الناقدة لكل أوجه الخلل فى الحياة السياسية والاجتماعية، والتى استبدلت بالأشخاص والمسائل الضيقة مصالح الأمة، وبسلوك الفرد

سلوك الجماعة. وكان رواد هذا التحول يعقوب صنوع بصحيفته «أبوناظرة»، وعبدالله النديم أحد زعماء الثورة العربية، بصحيفتيه «التنكيك والتبكيك»، و«الأستاذ».

وكان يعقوب صنوع قد أنشأ صحيفته عام ١٨٧٦، واستخدم فيها اللغة الدارجة والصور الكاريكاتيرية للسخرية من الخديوى اسماعيل وجشعه وبذخه، فأغلق صحيفته بعد عامين من صدورها ونفاه من البلاد، فذهب إلى فرنسا ومن هناك كان يرسل بصحيفته إلى مصر في أسماء مستعارة حتى تصل إلى قرائه، فمرة يسميها «أبوصفارة» ومرة «الحاوى الكاوى»، وهكذا. وكان يسمى اسماعيل شيخ البلد أو شيخ الحارة أو فرعون أو غير ذلك. وكان يعقوب صنوع نصير الفلاحين البؤساء ضد كل صور الامتيازات الأجنبية.

أما عبدالله النديم فقد أصدر صحيفة «التنكيك والتبكيك» عام ١٨٨١ وأضاف إلى الجانب السياسى فيها الجانبين الاجتماعى والأخلاقي من خلال مقالات وصور، أحيانا بالفصحى وأخرى بالعامية، سخر من الفلاحين الذين حاولوا التفرنج، والمصريين الذين قلدوا مظاهر التحرر الأوربى فلم يروا فيه سوى الخمر والجنس. كذلك أصدر النديم عام ١٨٩٢ صحيفته الثانية «الأستاذ» التى سارت على نهج «التنكيك والتبكيك»، ويعلق عليها شوقى ضيف بقوله إن عبدالله النديم وقرائه الذين شجعهم على كتابة الزجل الساخر ونشره فى صحيفته، لم يتركوا عيبا خلقيا ولا فسادا اجتماعيا إلا قطروه تقطيرا ساخرا هزليا فى أزجالهم ومقالاتهم.

ومن المجلات الساخرة التى صدرت فى أواخر القرن الماضى وأوائل
التالى مجلة «الأرغول» لشيخ الزجالين محمد النجار، و«حمارة منيتى»
لمحمد توفيق، ومجلة «خيال الظل» لأحمد حافظ عوض الذى كان رائدا
فى فن الكاريكاتير سواء بالكلمة أو بالصورة، ومهاجما للحزب الوطنى
الذى كان يريد ويسعى إلى عودة مصر إلى الخلافة العثمانية. كذلك
كانت هناك مجلة «السيف» لحسين على وأحمد عباس، والتى قلدتها بعد
ذلك مجلة «البعكوكة»، ومجلة «الكشكول» التى صدرت عام ١٩٢١
وكانت أهم وأشهر مجلة سياسية ساخرة ظهرت فى هذا القرن،
وتخصصت فى الهجوم على حزب الوفد بالصورة الكاريكاتيرية والمقال
الساخر.

وكان رواج مجلة «الكشكول» دافعا لأصحاب دار الهلال على إخراج
مجلة «الفكاهة» عام ١٩٢٦، وظلت تصدر حتى عام ١٩٣٤، ولقيت
رواجا منقطع النظير. رأس تحريرها حسين شفيق المصرى أحد محررى
مجلة «الكشكول» الذى عرف بالسخرية اللاذعة فى كل ما كتبه وما
قاله، واشتهر بمعارضة القصائد الجادة المشهورة فى الشعر القديم
بقصائد ساخرة هازلة حديثة من وزنها وقافيتها. لكن المجلة تحولت بعد
ذلك إلى مجلة «الاثنين» التى جمعت بين الفكاهة الهازلة والسخرية
الجادة وكانت رائجة أيضا.

ولم يقتصر إزدهار فن السخرية على الصحف والمجلات، بل تألق
أيضا فى مقاهى القاهرة الساهرة ومجالس أنسها. وكان من نجومها
محمد البابلي، وحسين الترسى، وحسن الملا، وحسين زينهم وغيرهم.

أما الشيخ عبد العزيز البشرى فجمع بين جلسات المقاهى الساخرة ودبج المقالات التى اشتهر بها فى مجلة «السياسة الأسبوعية» تحت عنوان «فى المرأة»، والتى قدم فيها مشاهير عصره من أمثال سعد زغلول، وعدلى يكن، وزيور، وعبد الخالق ثروت، ومحجوب ثابت وغيرهم. كان يجتمع برسام الكاريكاتير ستنيز ليناقشه الفكرة كما يفعل أحمد رجب ومصطفى حسين فى أيامنا هذه، ثم يخرجان على القراء بالرسم الكاريكاتيرى ومعه الصورة الساخرة بقلم البشرى الذى تأثر بروح السخرية عند الغرب فلم يكتف فى تصويره للشخصيات بتعقب هئاتها، وسقطاتها، بل حاول تحليل نفسياتها وطباعها تحليلًا سيكولوجيًا. وهو يعبر عن هذا المنهج فيقول:

«ولا يذهب عنك أن شأن الكاتب فى هذا الباب كشأن المصور الكاريكاتورى، فهو انما يعتمد إلى الموضع النأتىء فى خلال المرء، فيزيد من وصفه ويبالغ فى تصويره بما يتهيأ له من فنون النكات».

كذلك أصدر البشرى كتابا بعنوان «قطوف» فى جزءين سخر فيه من معظم جوانب الحياة المصرية التى خبرها بنفسه.

أما حافظ إبراهيم شاعر النيل فعرف بالسخرية اللاذعة التى تجلت فى مجالسه التى تناقلتها الألسنة أكثر من بروزها فى شعره. وكان سعد زغلول من أشد المعجبين بجلساته الزاخرة بالفكاهة اللامحة والسخرية التى تصيب أكثر من هدف فى وقت واحد. ومع ذلك نجد فى ديوانه قصائد يسخر فيها من محجوب ثابت، وفكاهات ومداعبات محمد البابلى وغيره من أصدقائه.

كذلك عرفت المقاهى والمجالس أساليب جديدة للسخرية ابتكرها أبناء أو أولاد البلد الذين لا يحترفون الأدب، من أشهرها «القافية» التي يدعى فيها اثنان للمبارزة الفكاهة فى موضوع بعينه، ويبدأ أولهما فيذكر شيئاً، ويقول الثانى «أيش معنى، أى لماذا؟ فيجيبه الآخر إجابة ضاحكة محاولاً افحامه، لكن الثانى يشحذ تفكيره ليرد له الصاع صاعين.

وكان فى مصر إلى عهد قريب جماعة من الناس سموا «بالأدبائية» ينشدون بعض الأزجال فى الموالد يجمعون بها بعض القروش من السامعين، وكانوا يعتمدون على محفوظاتهم، قد يبتكرون بعض الأزجال من بنات أفكارهم. وأحياناً يحملون «دريكة» صغيرة يضربون عليها كما يضربون على صاجات، وقد يلبسون طرابيش، ويسعون بحركاتهم إلى اضحاك سامعيهم.

فى هذا المناخ بزغ نجم بيرم التونسي الذى يعتبر أبرع الزجالين المعاصرين، وأكثرهم حبا وقرباً من القراء، وهو رائد فى السخرية من المآخذ والعيوب الاجتماعية مع التصوير الفكاهى، والروح العذبة، والوخز، والغمز، والتفريع، وكانت جريدة «الجمهورية» قد خصصت لبيرم التونسي يوماً فى الأسبوع يدبج فيه صفحة من صفحاتها بفكاهاته الساخرة التى يكتبها تارة فى أزجال، وتارة فى مقامات ومقالات، وأخرى فى فوازير.

أما إبراهيم عبد القادر المازنى فكان فى طليعة الأدباء المثقفين بالثقافة الغربية، وكان معجباً بمارك توين الأمريكى وتيرجنيف وهاتزيباشيف الروسين وتجلّى هذا التأثير فى مقالاته الأولى التى نشرها

بعنوان «قبض الريح»، ثم «صندوق الدنيا». كذلك تسرى روح السخرية فى قصصه وصوره كما تسرى فى مقالاته.

ومن الملفت للنظر أن صور الحكام والمسؤولين فى ذلك العصر الحافل اتسع لكل هجمات السخرية من الكتاب والشعب، باستثناء حكم اسماعيل على يعقوب صنوع بالنفى وإن كان قد احتل سخريته المريرة سنتين فى مجلته «أبونتارة»، وكذلك الاضطهاد الذى عاناه زعماء الثورة العربية بعد فشل ثورتهم، وفى مقدمتهم عبدالله النديم، أما فيما عدا هذا فكانت سهام السخرية تنهال من كل حذب وصوب دون خوف من ظلم أو بطش، خاصة مع بداية الحياة الحزبية وإنشاء الحزب الوطنى وما تبعه من أحزاب أخرى. فلم يعد هناك زعيم فوق مستوى النقد والسخرية باستثناء ما يقع تحت طائلة قانون العيب فى الذات الملكية وكان نادرا. فكان مصطفى كامل والحزب الوطنى بكل جاذبيته المبكرة هدفا لسهام السخرية المنطلقة من مجلة «خيال الظل»، وسعد زغلول وحزب الوفد بكل شعبيته الساحقة عرضة للسخرية اللاذعة المتدفقة من أقلام محررى مجلة «الكشكول».

لكن بعد قيام ثورة ١٩٥٢ وسيادة الروح الفاشية العسكرية تحولت شخصية الزعيم إلى ذات مصونة لا تمس، أى صور أشد صرامة وجهامة من قانون العيب فى الذات الملكية الذى ألغته الثورة، ولذلك اختفت السخرية أو كادت من على صفحات الصحف والمجلات، وأصبحت قاصرة وموجهة إلى من يهاجمهم الزعيم فى خطبه أو فى توجيهاته إلى قادة الإعلام، ولم تعد السخرية نابعة من فكر الكاتب

ووجدانه بل أصبحت موجهة كأى نشاط سياسى أو إعلامى آخر، ولذلك فقدت بريقها وتآلقها وحدثها وروحها المرحية . وكان الكتاب يعلمون تمام العلم أن من يخرج بسخريته عن الحدود المرسومة والمقننة سلفا فليس أمامه سوى المعتقل أو الطرد والمنع من الكتابة على أحسن الفروض .

وتضاءلت مساحة السخرية على صفحات الصحف والمجلات حتى أصبحت مجرد شذرات متناثرة عند محمود السعدنى وأحمد بهجت وأحمد رجب الذى استطاع بمهارة فائقة أن يحافظ على عموده اليومي الساخر: ١/٢ كلمة حتى الآن فى جريدة «الأخبار»، أما عباس الأسوانى ومحمد عفيفى فقد رحلا .

ولذلك انتقلت السخرية فى العشرين سنة الأولى من الثورة، من صفحات الصحف والمجلات إلى أسنة الناس التى كانت تردد النكات التى تسخر من جبروت قادة الثورة وفاشيتهم . ويرغم أن تداول هذه النكات كان فى الخفاء خوفا من الأعين والآذان المتلصصة بصفة رسمية، فإنها كانت تنتشر انتشار النار فى الهشيم لدرجة أن جمال عبد الناصر فى خطابه فى ٢٣ يوليو ١٩٦٧ فى أعقاب الهزيمة البشعة أعلن عن تدمره الصريح من حمى النكات الساخرة من الثورة والهزيمة وكل من حشا به الإعلام عقول الناس، وقال فى ضيق بالغ: «كل واحد يقابل الثانى يسأله: هل سمعت آخر نكتة؟» .

وهذا دليل عملى قاطع على أن السخرية كانت دائما سلاح الكتاب والمواطنين العاديين فى الدفاع عن أنفسهم وعن قيمهم الأثيرة، سواء أكان مشهدا علنا أو متداولاً سرا . وما ينطبق على الشعب المصرى

ينطبق على أى شعب آخر، خاصة شعوب العالم الثالث أو الرابع التى لم تلحق بموكب الحضارة، ولم تترسخ فيها القيم الديمقراطية التى تقدر حرية التعبير المباشر وإعلان الرأى بلا خوف من عقاب متريص.

لكن هذا لا يعنى أن فن السخرية اختفى من الدول المتحضرة التى قطعت أشواطاً بعيدة فى مسيرتها الديمقراطية، فهو فى هذه البلاد فن عذب يتميز بروح الدعابة والتهكم المرح الذى يلوح ولا يجرح، يغمز ولا يطعن. أما المرارة فصفة ملازمة لروح السخرية فى البلاد التى تعاني من الفاشية والديكتاتورية والكبت والإرهاب، وهى مرارة غالباً ما تكون مغلفة بأردية التورية اللفظية، أو مجهولة المصدر العاجز بطبيعة الأمر عن مواجهة بطش الحكام. والجهل بمصدرها يجعلها تبدو وكأنها رأى عام للشعب كله، ولذلك يصعب اصابتها فى مقتل.

وستظل السخرية جزءاً عضوياً لا يتجزأ من تكوين النفس البشرية التى تستخدمها كما يستخدم القنفذ أشواكه التى يتفوق داخلها عند أى هجوم، فلا يجد عدوه ثغرة يستطيع أن يتسلل منها إليه، وستظل السخرية أحد المجالات الحيوية المثيرة التى يصلح فيها الأدباء ويجولون على مر العصور من أجل الجديد فى الإبداع الأدبى.

الفصل الثانى

أدوات التهكم وأساليبه

لم يلق مفهوم التهكم فى الأدب أى نوع من الاهتمام الأكاديمى أو النقدى فى عالمنا العربى، ولذلك لا نزال نخلط بينه وبين السخرية والتورية اللفظية فى حين أن الغرب سبقنا إلى تحديد مفهومه ومصطلحه منذ عهد الإغريق. فقد برز مفهوم التهكم فى فجر المسرح الإغريقى عندما ارتبط بشخصية نمطية فى المسرحيات الكوميدية، لها أسلوبها المتميز والنمطى سواء فى الحديث أو الحركة، وكانت تقف بالمرصاد لشخصية نمطية أخرى تجسد العنجهية الفارغة، والمبالغة الكاذبة، والبطولة الوهمية من أجل تحقيق أهدافها بالتأثير فى الآخرين وخداعهم بصورتها المبهرة الخادعة. وكانت الشخصية التى تجسد التهكم من قاع المجتمع، ضئيلة الحجم، وهشة البنيان، لكنها ذكية

وخبيثة وفي جعبتها سهام التهكم التي لا ينضب معينها، وقادرة دائما على الانتصار على الشخصية ذات العنجهية والمبالغة الكاذبة، برغم ضجيج الأخيرة وضخامة جثتها، ومحاولتها إرهاب الآخرين بالسطوة والبطش. فالشخصية المتهمكة المترخصة بها تستخدم من أساليب الدهاء، وإظهار مالا تبطن، والتظاهر بالجهل والضعف والخيبة، ما يخفى حقيقة قوتها الكامنة التي تمكنها في النهاية من قلب الموازين ووضع الأمور في نصابها الحقيقي.

من هذه الشخصية الكوميديّة النمطية القديمة نبع مفهوم التهكم الذي لا يزال سائدا في مجالات النقد الأدبي حتى الآن. ولعل شخصية سقراط كما صورها أفلاطون في أحاديثه الحوارية كانت نموذجا للمفكر والفيلسوف الذي يحسن استخدام التهكم كأداة للوصول إلى هدفه الفكري وإبلاغه لمستمعيه، فهو مثال التواضع الذي يعترف دائما بالجهل، ويرسخ تماما لوجهات النظر التي تختلف مع وجهة نظره، لكن لكي يدحضها ويظهر ما فيها من عبث وتفاهة من خلال مهارته في توظيف القياس المنطقي. فهو يبدأ بإفتراض صحة المنطلق المنطقي لوجهات نظر الآخرين، وينطلق منه مثلهم لكن لكي يثبت عدم إتساق النتائج التي توصلوا إليها مع الإفتراضات التي بدءوا منها هم أنفسهم.

ولا شك أن سقراط بسلوكه هذا كان تجسيدا حيا لتلك الشخصية المتهمكة التي عرفتھا المسرحيات الكوميديّة المبكرة عند الإغريق. فالتهكم السقراطي يتمثل في البحث عن الحقيقة عن طريق تبني وسائل وغايات جدالية، وإفحام الخصم في النهاية بأسلوب غير مباشر، أي

بتضخيم ذاته، والوصول بثقته بنفسه إلى حدود المثل القائل: كل شيء يزيد عن حده ينقلب إلى ضده، خاصة عندما يفشل الخصم في إدراك التهكم الخفى الكامل في حوار الشخصية المواجهة ومنطقها بسبب تراضعها الذى يوحى بالضعف والجهل والتردد، واستخدامها لتعبيرات وألفاظ تصور الواقع بطريقة غير مؤثرة عاطفيا، وتواربها فى الظل كما لو كانت خجلى مما تقوله. لكن مع تطور الجدل، تدور الدوائر. وتتضاءل تدريجيا الذات المتضخمة المنتفخة بالثقة الكاذبة، بعد أن تتعري حقيقتها للكل. وهذا التهكم السقراطى هو ما كانت تفعله الشخصية التهكمية فى الكوميديا الإغريقية الرائدة.

وكان التهكم الذى عرفت به التراجيديا الإغريقية امتدادا غير مباشر لهذه الأداة الكوميديية، فهو يحتوى على نفس العناصر ولكن مع إضافات درامية وإنسانية خصبة وهائلة إلى المفهوم القديم. فالفقد أو إرادة الآلهة يمنحان قوة الدفع الأساسية لحركة الصراع فى المسرحية. والشخصية الرئيسية فى المسرحية غالبا ما تكون، مثل أوديب، ذات كبرياء وغير مستعدة للتخلى عن إرادتها الصلبة واعتزازها وفخرها بنفسها، وهى بهذا تهين الآلهة عندما يشتت بها الغلو فى هذا الاتجاه. فأوديب منذ بداية المسرحية وهو يسير إلى مصيره الذى ظل جاهلا به حتى النهاية. هنا يمكن أن نضع أيدينا بمنتهى الثقة على العناصر الضرورية اللازمة للتهكم: أولها: الإرادة العليا الجبارة التى تنهك من كبرياء الإنسان وغروره ممثلة فى الآلهة أو القدر، والتى تعد له لحظة التعرية الكاملة للحقيقة التى لم يكن يدرك بها على الإطلاق لأنه لم يعرف حقيقة قدراته البشرية المتواضعة الهزيلة؛ وثانيها: ضحية هذا

التهكم العلوى والذى تدفع ثمن جهلها، وأحيانا يشاركها هذا الجهل بعض الشخصيات الأخرى ومعها جمهور النظارة الذى يرى الأمور من منظور الضحية، والذى يكتشف معها فى النهاية كيف أعماه جهله عن رؤية وإدراك تهكم الآلهة التى تسخر من كبرياء البشر.

والتهكم فى التراجيديا الإغريقية يعتبر أحد جوانب المفهوم الإغريقى للفلسفة الأخلاقية السائدة فى ذلك العصر. فقد كان بمثابة الأداة التى تنزل بها الآلهة عقابها بمن يظنون فى أنفسهم القدرة على تحديها. أى أنه تطبيق للقاعدة الأخلاقية الذهبية التى تحتم تجنب التطرف فى كل صوره وفى كل اتجاه، لأن الكون بقوانينه الأزلية والأبدية قائم على توازن محكم فى منطقة وسط بين الإفراط والتفريط، وهى المنطقة التى يتحد فيها الجوهر بالمظهر، الفعل بالقول، القدرة بالنية، وأى انحراف فى شخصية الإنسان يؤدى إلى خرق هذه القوانين لا بد أن يقابل بالحسم دون هوادة، حتى لو كان الثمن حياة الإنسان نفسه، وذلك لكى يعود إلى الكون إتزانه ووحده.

ولقد شاع استخدام الأدوات المختلفة والمتنوعة للتهكم، لكنها ظلت على مر العصور مرتبطة وشبيهة بهذا المفهوم الإغريقى إلى حد كبير. فالمفهوم الحديث للتهكم لا يزال يسعى إلى تثبيت الفهم الموضوعى للأشياء بعيدا عن الأهواء الذاتية، وتعرية التناقضات التى ينهض عليها السلوك البشرى، وسد الفجوة بين الحقيقة والواقع، ومطاردة كل أنواع الكبرياء، والعنجهية، والغرور، والوهم، والخداع، والزيف، والكذب سواء على النفس أو على الآخرين وغير ذلك من العوامل التى تسعى إلى طمس الحقيقة بأية طريقة.

ولا شك أن التهكم فى كتابات إيرازموس، ومونتاني، وتشوسر، وسويفت، وفولتير، وتوماس هاردى، وجوزيف كونراد، وهنرى جيمس، وأنتول فرانس وغيرهم، ليس مجرد أداة أدبية وفنية لصياغة أعمالهم، بل يمكن أن نقول إنه بمثابة منهج استطاع أن يشكل رؤيتهم للحياة ذاتها، وبالتالي فإن استخدامهم للأدوات الفنية المتعددة للتهكم يخضع لهذه الرؤية. فالتهكم يتحكم فى كل من الشكل والمضمون، ويمثل ركيزة أساسية تنهض عليها أعمالهم.

وبمرور العصور تنوعت أدوات التهكم وأساليبه، منها على سبيل المثال، التهكم اللفظى الذى يقترب كثيرا من التورية اللفظية التى شاعت فى الأدب العربى بطول تاريخه، ولعل هذا التشابه كان السبب فى الخلط الذى وقع فيه النقاد والأدباء العرب عندما ربطوا بين التورية اللفظية وبين التهكم بصفة عامة، وليس بين التهكم اللفظى بصفة خاصة. والتهكم اللفظى هو نوع من الحديث الذى لا تعكس فيه الكلمات - سواء بقصد أو بغير ذلك - المعنى الحقيقى المقصود منها. وهو كفيل بخلق نوع من الحيرة، والاستنكار والتساؤل، والتخمين فى داخل المستمع أو المتفرج وأحيانا فى شخصية أو أكثر الشخصيات التى وجدت نفسها فى مثل هذا الموقف. ولعل من أشهر الأمثلة على ذلك كلمات ليدى ماكبيث عندما نما إلى علمها قدوم الملك دنكان لزيارتهم. قالت:

هذا القادم.. لا بد أن يوفر له كل سبل الراحة،

فهذه الجملة يمكن أن تفهم على المستوى الظاهرى لها بأن ليدى ماكبيث تصدر أوامرها بإعداد كل مظاهر الضيافة الكريمة للضيف

الكبير، لكن روح التهكم المثير للتشاؤم يعبر بالفعل عن عزمها على اغتيال الملك.

أما التهكم الدرامي وأحياناً يطلق عليه التهكم التراجيدي، فهو أداة أدبية تستخدم لإبراز التناقض أو التناقض الذى يكمن فى داخل الحبكة المسرحية، وذلك عن طريق إحاطة المتفرجين علماً بالعناصر المكونة للموقف الذى تجهل حقيقته الشخصية أو الشخصيات المندمجة فيه. وبالتالي فإن الكلمات والأفعال، بالإضافة إلى تأثيرها المأسوى الطبيعي ودورها فى تطوير أحداث المسرحية، تثير أحاسيس كثيرة داخل المتفرجين مفعمة بالإرتياح والثقة النابعة من الإحاطة بكل جوانب الحدث فى حين تعجز الشخصيات نفسها عن الحصول على هذه المعرفة الحيوية التى قد يتعلق بها مصيرها نفسه. وفى مأساة «أوديب» لسوفوكليس مثال ساطع على التهكم الدرامي، حين ينهمك البطل دون أى وعى أو إدراك منه فى رسم الطريق المحدد والخطأ المحكم التى ستورده موارد التهلكة فى النهاية.

ولذلك فإن التهكم يمكن أن يرتبط بالمواقف التراجيدية كما يرتبط بالمواقف الكوميديّة التى كانت بمثابة المنبع الأولى له. ولذلك نجده بكثرة فى المسرحيات الهزلية الفرنسية، وفى حواديت بوكاتشيو الإيطالى، وتشوسر الانجليزى المعروفة باسم «حواديت كانتربرى»، كما نلمسه بوضوح فى مسرحيات موليير وشكسبير الكوميديّة.

أما مصطلح «تهكم القدر» أو ما نعرفه فى العربية «بسخرية القدر» فإنه يعنى قدرة هذه القوة الغامضة الطاغية على التهكم من الخطط

التي يضعها الإنسان لنفسه ظنا منه أنه يمتلك إرادة يستطيع بها أن ينفذ ما يشاء، أى أن يتحدى بها إرادة القدر. ولعل هذا المفهوم يتردد بكثرة فى اللغة العربية عندما نقول: تقدرون فتضحك الأقدار، أو ساعة القدر يعمى البصر... الخ. وهو نفس المفهوم الذى شكل نظرة توماس هاردى إلى الحياة سواء فى رواياته أو أشعاره. كذلك كانت رؤية أرنست رينان وأناتول فرانس للحياة بصفتها مشهدا زاخرا بالتهكم ابتدعته قوة خفية جبارة لتسلى نفسها به، ولذلك صورا الكوميديا الإنسانية المأسوية من وجهة نظر هذه القوة التي لا تقيم وزنا لدور الإنسان فى هذا الكون.

وقد حرص أناتول فرانس على مزج التهكم بالشفقة والعطف كما نجد فى روايته «حديقة أبيقور» التي توحى بأن التهكم لا يعنى القسوة والاجحاف، بل يميل بطبيعته الإنسانية إلى التسامح والتعاطف مهما بدا موضوعيا فى قسوته التي لا يمكن أن تصل إلى حد التجريح. وهذا النوع من التهكم الرقيق اللامح والمؤثر فى الوقت نفسه يشيع فى كتابات الأدباء المحدثين الذين يعطفون على موقف الإنسان الرازح تحت وطأة المجتمع الحديث المعقد، كما نجد فى روايات الأديب الأمريكى هنرى جيمس.

وكان الناقد الألمانى فريدريك شليجل قد ابتكر اصطلاح «التهكم الرومانسى» ليؤكد على الموضوعية التي يمكن أن يتميز بها العمل الأدبى الرومانسى الذى غالبا ما يوصف بأنه عمل ذاتى ينهض على مجرد الانطباعات الشخصية. فالتهكم لا يعنى سوى انفصال ذات الأديب عن الكيان الموضوعى لعمله الأدبى لأنه ينظر إليه من خارجه

وينظرة نقدية حيادية تمنع توحيده معه . ويستشهد شليجل على ذلك
بمسرحيات شكسبير الرومانسية التي لا تكشف عن الميول الشخصية
للأديب، إذ يرى شليجل أن علاقة الأديب بعمله مثل علاقة الله بخلقه
وإن كانت على مستوى دنيوى . وطبقا لهذا المفهوم فإن أكثر الأعمال
الأدبية موضوعية يمكن أيضا أن تحتوى وتكشف عن أكثر العناصر
ذاتية عند الأديب مثل قدرته على الإبداع، وحكمته العميقة، ونظريته
الشاملة، لكنه يظل فى النهاية مبدعا موضوعيا وملاحظا نقديا . فالتهم
الرومانسى قادر على جعل الذات والموضوع وجهين لعمله واحدة هى
العمل الأدبى نفسه . لكن يظل مفهوم شليجل للتهكم الرومانسى بذرة
غريبة فى حقل الأدب الرومانسى لأنها لم تثمر أعمالا تجسد هذا
المفهوم النظرى . ذلك أن النقاد والأدباء الرومانسيين الألمان، على وجه
الخصوص، مثل لودفيج تايك، وجيته، وهابنه ومن تلاهم استخدموا
نفس المصطلح بهدف تحطيم وهم الموضوعية عن عمد، وذلك بفرض
ميولهم وأهوائهم الذاتية، بل وشطحاتهم على أعمالهم الروائية والشعرية .
وكانت قولة جان بول التى قالها عن رواياته نموذجا لاستغراق الأديب
فى أعماق ذاته برغم موجات التهكم التى تفرقها . قال إن رواياته ينبع
متدفقة من الشطحات الساخنة، لكن لا بد أن يتبعها مطر بارد من
التهكم . ولعل أشهر الأعمال الأدبية التى يستشهد بها فى هذا الصدد هو
«دون جوان» لبيريون خاصة فى النشيد الثالث منه .

ويلعب التهكم دورا حيويا فى الذرى المسرحية التى تمتزج فيها
الإثارة بالتشويق والدهشة والمفاجأة، خاصة الذروة الأخيرة التى تعقبها
النهاية . يقول لوب دى فيجا الكاتب المسرحى الإسبانى إن الدهشة

عنصر مهم في ربط الجمهور بالنص المسرحي، ولا بد أن يحافظ المؤلف على سره حتى النهاية، لأن الجمهور سوف يدير وجهه تجاه الباب ويظهره للمنصة بمجرد التأكد من أنه لم يعد هناك شيء جديد يمكن أن يعرفه. وكثير من مسرحيات الغموض والتشويق يؤكد في البرنامج المطبوع الموزع على الجمهور، رجاء المؤلف بالاحتفاظ بالنهاية سرا عن الذين لم يشاهدوا المسرحية.

لكن التهكم الدرامي يمكن أن يحل محل عنصر المفاجأة في ربط الجمهور بالعرض المسرحي، ذلك أن في داخله تكمن مفاجأة من نوع فكري هادئ، مثير للذكاء والتأمل في حقيقة الهدف مما تقوله الشخصية بعيدا عن ظاهر الألفاظ المنطوقة. فشكسبير مثلا، وفي التراجيديا بصفة خاصة نادرا ما يلجأ إلى عنصر المفاجأة، لأن التهكم المسلط على مسيرة الشخصيات ومصيرها لا يمكن أن يقابل من الجمهور بالتجاهل أو السأم. لكن الروائي الانجليزي ترولوب لا يمانع من وجود مفاجآت قد تصل إلى حد الصدف المحضة، لكنه لا يعنى في الوقت نفسه أن يفقد المتلقى القدرة على إدراك الكيانات المحددة المختلفة، وهي الكيانات التي تحدد مسارات الشخصيات بطريقة مسبقة إلى حد كبير. كذلك يؤكد الأديب الألماني ليسنج على أن الإثارة الفكرية الكامنة في التهكم الدرامي أرقى بكثير من الإثارة العاطفية الكامنة في عناصر التشويق والمفاجأة التقليدية التي ينتهي أثرها بمجرد معرفتها.

وتفرق ادبث هاميلتون بين نوعين من الكوميديا: نوع ينتمى إليه أمثال الكاتب الرومانى تيرنس وموليير ويتميز بالحبكة المحكمة الصنع

والقائمة على المفاجأة والتشويق، ونوع ينتمى إليه أمثال الرومانى بلاوتوس، وهو عبارة عن مشاهد كوميدية متتابعة. وغير وثيقة الصلة تماما فيما بينها، وقائمة أساسا على التهكم الدرامى. ففى مسرحية تيرنس «الحماة، مثلا لا تحل النهاية حين يعرف كل واحد كل شىء كما فى كوميديات التهكم الدرامى، وإنما تحتفظ شخصيتان بالحل الأخير سرا فيما بينهما.

وفى مسرحيات الميلودراما إذا ما استيقظ نائم على صوت وقع أو تعثر قدم فى الغرفة المجاورة، فلا بد أن تجتاحه الدهشة الممزوجة بالخوف. يمسك مسدسا وينتظر وقع أقدام أخرى بنفس الأحاسيس التى تظل عادة فى حدود التوقع الرابط الجأش. ولا بد للمتفرج الذى لا يحاط علما بكل أبعاد النوقف أن يشارك الرجل أحاسيسه. لكن إذا كان المتفرج يعرف أن هذا القادم الذى سيواجه فى لحظة مسدسا فى يد رجل خائف مرتعب، هذا القادم هو ابن الرجل الممسك بالمسدس، وأنه عاد بلا مقدمات إلى البيت الذى طرده منه أبوه. عندئذ لا بد أن يتصاعد التوقع إلى درجة أعلى من الإثارة والتوجس. وهكذا يدمج التهكم الدرامى المتلقى فى مسار قوى أكثر دفعا من تلك التى تحرك الشخصيات نفسها، ويمنحه احساسا بالمشاركة فى هذه القوى الدافعة نحو مصير الشخصيات، إذ أنه يصبح على مستوى القدر نفسه عندما يدرك خططه التى تكشف أمامه.

ومن الملاحظ أن هذه القوة لا تحبذ استخدام الحبكة المعروفة للجميع. فالتراجيديا الإغريقية تحكى قصصا مألوفا لدى المتفرج على

أساس أن هذه المعلومات تقوى من إدراكه لمعنى المواقف والأحداث. كذلك نقول ليدى ماكبث وهى تغرى زوجها باغتيال الملك فى ملاحظة عابرة إن قليلا من الماء سوف يخلصهما من آثار هذه الفعلة، لكننا بعد ذلك نرى الأسى العميق وهو يلهبها بسوط العذاب بعد ارتكاب الجريمة حين تندب حظها قائلة بأن كل عطور الجزيرة العربية لن تمحو ما فعلته يدها الصغيرة، وقد نسيت تماما ما قالت من قبل، أما المتفرج فلم ينس، ولذلك يسيطر التهكم الدرامى على نظرتة تجاهها.

ولذلك فإن الأديب الواعى بأسرار صنعته قادر على توظيف عنصر التهكم الدرامى فى تشكيل أحاسيس المتلقى وأفكاره تجاه عمله الأدبى بحيث يصل به إلى أقصى حد يمكن عنده أن يستشعره ويدركه. فالتهكم الدرامى عملية فكرية وشعورية تدور فى داخل المتلقى أكثر من سريانها فى داخل العمل الأدبى ذاته وإن كان يثيرها ويحركها. يكفى أن المتلقى يعلم مالا تعلمه الشخصيات مما يجعله يشعر بأنه سيد العرض المسرحى بالفعل. ونحن فى العالم العربى لم نستغل هذه الأداة الأدبية خير استغلال حتى الآن، ولا زلنا نخلط بين السخرية، والتورية اللفظية، والتهكم، وروح الدعابة، واللامحية، مما يحتم ضبط هذه المفاهيم والمصطلحات حتى لا يحدث مثل هذا الخلط المعيب.

الفصل الثالث

الفكاهة سلاح اجتماعي

يطلق مصطلح «الفكاهة» عادة على تلك الكتابات الكوميدية التي تجعل من موضوعها ماثارا لضحك القارئ، وذلك للفرقة بينها وبين تلك التي تتميز بالسخرية والتهكم، والتي تتعامل مع عقل المتلقى قبل أن تثير انفعالاته الحسية. ولم تتم هذه الفرقة إلا في القرن الثامن عشر على سبيل تحديد المصطلحات الأدبية والنقدية، أما قبل ذلك فكانت هذه الفروع تنضوي تحت لواء الكوميديا المثيرة للمرح والضحك، مستخدمة في هذا ما يمكن أن يطلق عليه روح الفكاهة والدعابة.

والآن اتسع مفهوم الفكاهة ليشمل كل ما من شأنه أن يثير ميل الإنسان الفطري إلى الضحك، خاصة بعد اكتشافات علم النفس ودراسات السلوك عند الأطفال التي أثبتت أن الضحك في أبسط صوره

البيولوجية، ظاهرة ايجابية وبناءة للروح المعنوية، ومثيرة للتفاؤل والبشر والإنطلاق. وكان داروين قد لاحظ أن الضحك في جوهره الحقيقي هو مجرد تعبير عن البهجة والسعادة، ولا يوجد بطبيعته إلا في مجالس الأنس واللهو، أما الأنواع الأخرى من الضحك، فهي تبدو ظاهريا هكذا، لكنها في حقيقتها مجرد مظهر من مظاهر التنفيس عن انفعالات مختلفة تماما، انفعالات يمكن أن تنفجر داخل الإنسان وتدمره إذا حاول التنفيس عنها بطريقة جادة تقليدية، ولذلك فإن الضحك الذي يتحول إلى ظاهرة هستيرية في بعض الأحيان قد يساعد الإنسان على التنفيس عن كربه بطريقة أسرع من البكاء، وبالتالي يقدم له بعض الإرتياح الذي يتمناه. لكن هذا الإرتياح لا يمكن أن يصل إلى درجة البهجة والمرح واللهو والدعابة وهي العناصر الذي تشكل غاية الفكاهة ووسائلها في الوقت نفسه.

وربما كان أفلاطون أول من حاول الاقتراب من هذه الظاهرة في إحدى محاوراته حين قال إن التجارب الروحية التي يمر بها المتلقى في مجال الكوميديا هي مشاعر مختلطة من الألم والمتعة. ثم جاء أرسطو بتعريف لروح الفكاهة الكامنة في الكوميديا، يقترب إلى حد ما من مفهوم أفلاطون، حين قال إن سهام الفكاهة أو الكوميديا لا بد أن توجه إلى سوء أو قبح معين دون إحداث ألم. وهو تعريف يدل على أن الضحك سلاح موجه للبشر غير الأسوياء الذين ينسون حقيقة أدوارهم وأحجامهم وهو التعريف الذي أكدده شيشيرون وطوره بعد ذلك. كذلك فإن الفيلسوف الانجليزي توماس هوبز (١٥٨٨ - ١٦٧٩) قام بإحياء هذا المفهوم عندما قال إن العاطفة التي تتجسد على وجه الإنسان والتي

نسميها ضحكا ما هي إلا احساسا مفاجئا بعظمة الإنسان، نتيجة للقدرة التصحيحية التي فطر عليها. وقد تبنى هذا المفهوم ديكارت، وليمينيه، وميريدث، وجروس وبرجسون وغيرهم، واستندوا في هذا إلى ظاهرة عدوى الضحك التي سرعان ما تنتشر بين جمهور المجتمعين في أى مجال، الضحك من كل ما يعتور الجوهر الإنساني، دفاعا عنه وهجوما ضد كل ما يحاول تشويهه. وهذه خصائص كامنة في الإنسان أكثر من كمونها في الضحك نفسه كظاهرة.

وكان فولتير الأديب والمفكر الفرنسي الساخر قد عرف الضحك بأنه خاصية تصدر عن مزاج مبهج ولا تساير على الإطلاق أحاسيس الاحتقار والغضب. وقد عبر عن نفس الرأي الكاتب الفكاهي الألماني جان بول ريشتر. كذلك رفض الفيلسوف سبينوزا ربط الضحك الصدى بأحاسيس الاشمئزاز والاحتقار والاستهزاء، وأصر على أن الضحك والفكاهة والدعابة والملحة هي نوع من البهجة والمرح. أما كانط فقد قال بأن الضحك يصدر عن التحول المفاجيء من توقع شيء محدد كنتيجة طبيعية لما سبق، ثم نفاجا بعدم وقوع هذا الشيء على الإطلاق، ولذلك فالإنسان الناضج يضحك من خيبة أمله. لكن شوبنهاور ضيق هذا المفهوم بحيث حصره في حدود مظاهر خيبة الأمل على المستوى الفكري فقط. كذلك أكد الفيلسوف الانجليزى هيربرت سبنسر على أننا نضحك فقط عندما نكون على استعداد لتوقع شيء ضخم ثم لا نخرج من هذا التوقع إلا بخفي حنين، وهو يتطابق في هذا مع مفهوم كانط. أما هيجل فقد ربط بين الفكاهة والكوميديا ربطا عضويا، فهي سلاح الكوميديا في إشاعة أحاسيس البهجة والانطلاق والثقة والسمو فوق

تناقضات الحياة وتفاهاتها. وقد استنبط هيجل من هذا حقيقة أخرى توضح أن جمهور المتفرجين في الكوميديا الراقية يضحكون مع الممثل على التناقضات التي وقع فيها، أى أنهم لا يضحكون عليه شخصياً، وإنما يشاركونه التجربة. لكن استنباط هيجل لا يمكن أخذه على محمل القاعدة المسلم بها، إذ إن موقف الجمهور في الكوميديا الراقية يختلف من مسرحية إلى أخرى اختلاف بصمات الأصابع، ذلك أن الضحك النابع من المواقف الكوميديا يسبق ويواكب الحاجز الذي ينشأ بين الذات والآخرين، نتيجة للأحباط الزاخر بالمرح والدعابة عند المتلقى الضاحك. ففي غياب هذا الحاجز يصبح الفهم مستحيلاً، لأنه يترك مكانه للتوحد مع الشخصية الكوميدي، وهو التوحد الذي يفترض وجوده في المأساة فقط. وبالتالي فإن النكتة تفقد قدرتها على الإضحاك لأنها أداة لمفاجأة المستمع الذي يكتشف خطأ توقعاته الفكرية والوجدانية التي تتجه وجهة أخرى جديدة برغم أنفه. ومغزى النكتة يكمن في الربط بين خيبة توقعات محتملة وبين إشباع توقعات مفاجئة لم تكن في الحسبان. وليست هناك قاعدة ثابتة لهذا المفهوم الواسع الشامل، ولذلك فإن فناني الكوميديا وكتاب المسرحية والقصة الفكاهية يملكون جعبة من حيل الإضحاك التي لا تنتهي، ويخترعون أساليب جديدة يفاجئون بها جمهورهم، وفي الوقت نفسه يمنحونهم فرصة لتفكير جاد، أو لرسم صورة مثيرة لموقف ما، أو لممارسة إحساس متدفق بالبهجة والإنشراح. وبالتالي فإن الفكاهة الراقية لا تعنى الهزل من أجل قتل الوقت، ولكنها تحمل في طياتها أفكاراً وأحاسيس بالغة الجدة والحدية. ولذلك لا يمكننا استبعاد أحاسيس الاشمزاز بل والاحتقار تجاه موقف كوميدي لا بد أن

يثيرها، كذلك يمكننا اضافة أحاسيس الشفقة والإعجاب التي لا تقتصر فقط على المأساة. ولذلك فإن الفكاهة الراقية تلزم المتلقى على اتخاذ موقف معين ومحدد تجاه أفكار وسلوكيات معينة ومحددة أيضا في داخل النص الكوميدي. من هنا كانت خصوبة التجربة التي يخوضها المتلقى في مواجهة الفكاهة ذات الأبعاد والتنويعات التي يصعب حصرها.

وإذا كانت الفكاهة زاخرة بشتى المشاعر والانفعالات الإنسانية، فإن التطهير الكوميدي يمكن أن يصبح ندا للتطهير التراجيدي. وكان أفلاطون أول من وضع يده على هذا الاتجاه الرائد في الكتاب العاشر من مؤلفه الشهير «الجمهورية»، عندما قال:

«عندما نتابع بطلا ما في ملحمة هومييرية أو مسرحية مأسوية وهو يئن بأحزانه في حديث طويل، أو إلى أفراد الكورس وهم يلطمون صدورهم وينوحون في أناشيد حزينة، فإننا نستسلم لمتابعة التمثيل بكل مشاعر العطف والشوق. لكن قليلين منا هم الذين يدركون بحق أن التوغل في وجدان إنسان آخر لابد أن يؤثر في مشاعرنا. ولن يكون من السهل أن تكبح جماح مشاعر الشفقة المتدفقة مع تعاطفنا عندما نتصور أنفسنا في نفس محنة المعاناة. ألا ينطبق هذا المبدأ على الفكاهة انطباقه على المأساة؟ إنك تمر بنفس التجربة في مواجهة مسرحية كوميديية أو مواقف من نفس النوع في الحياة اليومية عندما نتابع مواقف هزلية تخلج من القيام بها بنفسك، لكنك تتمتع بها إلى أقصى حد بدلا من أن تشمئز من مجونها. ففي نفسك يكمن دافع خفي للمجون، وللقيام بدور المهرج الهزلي، وهو دافع تحرص دائما على كبته داخلك حتى لا تفقد

احترامك في نظر الآخرين، لكنك في مواجهة المواقف الهائلة الماجنة
ترخي العنان لهذا الدافع وقد تنجرف إلى هذا النوع من المجون الهازل
وتلعب دور المهرج المضحك في حياتك الخاصة.

- ولذلك فإن أفلاطون يتهم الكوميديا والتراجيديا في آن واحد لأنهما
تشجعان انطلاق المشاعر والعواطف التي يجب أن تظل تحت سيطرة العقل
الواعي عند الإنسان، لكنها في مواجهة الكوميديا والتراجيديا تأخذ زمام
المبادرة وتمارس سطوة خطيرة على عبيدها، في حين أن الخير والسعادة
في حياتنا يعتمدان على إخضاعها والتحكم فيها حتى لو أدى ذلك إلى
ضرب مورها وذبولها. ولعل هذا هو السبب الذي دفع بأفلاطون إلى طرد
الشعراء من جمهوريته، فهم يشجعون الغرائز الحيوانية على الانطلاق من
عقلها بحيث تدوس في طريقتها كل جذور الفكر الجاد الراقى.

- وفي العصر الحديث قال جيلبرت مري إن تطبيق فكرة التطهير على
الكوميديا أسهل منه على المأساة لأنه أوضح وأكثر تحديداً، فقد أجمع
علماء النفس على أن بعضنا من عتقنا النفسى - وهو ما كان القدماء
يسمونه فيضاً متدفقاً من النشاط الحيوانى - يمكن التخلص منه
بالضحك. وأصبح من المتفق عليه عامة أن الضحك مفيد لنا، وأن
فائدته تتمثل في التنفيس العاطفى الذى يمكن أن نطلق عليه «التطهير
العاطفى» أيضاً.

وقد طبق لودفيج يكلز - أحد أتباع فرويد - فكرة عقدة أوديب على
الكوميديا حين قال إنه إذا كانت المأساة تظهر الإبن وهو يدفع ثمن
تمرده على أبيه، فإن الكوميديا تظهر الإبن منتصراً، والأب مهزوماً في
نهاية تنافسهما على امتلاك الأم. ذلك أن الكوميديا تحاول أن تصل إلى

السلوكيات الحيوانية الكافية فى داخل الإنسان حتى لا يترك نفسه نهبا لها دون أن يدري، فالكوميديا مواجهة للحقائق بصرف النظر عن درجة بشاعتها. ومن هنا كان إصرار جلبرت مرى على الربط بين أرسطو وفرويد فى مجال التطهير. ففي التسعينيات من القرن الماضى كانت أساليب العلاج الجديدة تسمى تطهيرية بدلا من تحليلية نفسية. ويرى فرويد أن النكات بطبيعتها تطهيرية لأنها تحرر الإنسان من شحنات انفعالية متنوعة ولا تثيره بشحنات جديدة. ولذلك فإن الأخلاقيين المتزمطين المولعين بشحن الناس بانفعالات منحازة ضد أو إلى أفكار ومواقف معينة لا يحبون النكتة والفكاهة التى تسرى عن النفوس وتجعلها تسترخى بعيدا عن الشد والجذب المتزمطين.

ومن الملاحظ أننا نضحك للنكتة، لكن تفسيرها لا يضحكنا وذلك لأن محتواها الفكرى ليس جوهرها. فالمهم أن نمر بالنكتة، نراها على مسرح أو نقرأها فى كتاب فكاهى. حتى نمر بتجربتها التى هى أشبه بالصدمة، ولكن حينما تكون الصدمة عادة مزعجة، فإن هذه الصدمة الفكاهية تفتح داخلنا ثغرة مضيئة يتدفق منها احساس البهجة والإرتياح. والفكاهة قاصرة على الكبار البالغين لأنهم فى أشد الحاجة إليها لكبتهم من أقوى انفعالاتهم ورغباتهم، أما الأطفال والصغار فليسوا فى حاجة إليها لقدرتهم المتجددة على التنفيس المستمر. فعن طريق الضحك يستدر الكبار مصادر طفولية للمتعة، ويصبحون أطفالا من جديد؛ إذ يجدون أكبر الرضا فى أصغر الأشياء، وأسمى النشوة فى أبسط الأفكار. ولا شك أن حس الفكاهة عند الأطفال ينمو مع الأيام وهم يناون شيئا فشيئا عن براءتهم الأولى.

ويرى برجسون وفرويد أن العلاقة بين الفكاهة والمسرح علاقة عضوية. يقول برجسون إن النكتة لا يمكن أن تفصح عن نفسها إلا في مشاهد، كذلك يوضح فرويد أن وجود النكتة يحتم وجود ثلاثة: المنكّت، والمنكّت عليه، والسامع، وهو ما يعرف في المسرح الفكاهى بثلاثى المضحك، والزميل، والجمهور. ولذلك فإن الممثل الفكاهى على المسرح لا يحتمل عدم ضحك الجمهور واستجابته، فى حين يستمتع الممثل المأساوى بالصمت الذى يعيش على رؤوس الجمهور وهو يلقى مناجاته. وكما يقول الناقد الفرنسى رامون فرنانديز إن المهرج فى الليلة التى لا يضحك فيها الجمهور يخرج من المسرح ويطلق النار على نفسه، أو يجدر به أن يفعل ذلك، لأن الشيء الوحيد الذى عاش من أجله لم يتحقق.

ويقول الناقد الأمريكى إيريك بنتلى فى كتابه «حياة الدراما، إن فن المهزلة هو التنكيت ممسرحا، أى التنكيت مجسدا فى شخصيات ومشاهد. والقول بأن هدفه هو الضحك قول صحيح، ولكنه ليس بهذه البساطة. قد يهدف الضحك إلى هذا أو ذاك من المعانى، ولكن لا بد من التمهيد له بحيلة وبراعة، كما لا بد من تنويعه كالنغم. ولذلك يحتم على الدارسين المحللين أن يهجروا البحث الدءوب عن السر الكامن فى النكتة والذى يدفع الناس إلى الضحك، لأنهم سيجدون أنها أحيانا غير مضحكة بالمرّة، وأنها أحيانا أخرى مضحكة جدا. فالأمر يتوقف على كيفية اقتياد الجمهور إلى النقطة التى يجب أن تنطلق منها النكتة وتصيب هدفها فى الزمان والمكان المناسبين، وعندئذ تتحقق الفكاهة.

والفكاهة لا تعنى تفجير الضحكات وتصعيدها إلى مالا نهاية، فهذا من شأنه أن يؤدي بالجمهور في النهاية إلى نوع من الهستيريا أو الاكتئاب. كذلك من المستحيل إبقاء الضحك على نفس الدرجة من الشدة دون انقطاع، لأن تأثيره على الجهاز التنفسي والصوتي لا بد أن يكون ضاراً، هذا طبعا بالإضافة إلى الضغط غير الصحية التي يمارسها على الجهاز العصبي. ولذلك يؤكد إيريك بنتلي أنه ليست هناك ثمة علاقة بين المتعة وطول الضحكة المسموعة. فالضحك القليل أفضل من الضحك الزائد عن الحد المعقول والمرغوب. ولذلك فالفكاهة التي تثير الابتسام والإنشراح الهادئ المصحوب بالمتعة الخالية من الضحك المتفجر خير من تلك التي تسعى إلى اضحاك الناس طيلة الوقت.

وكان المخرج والممثل الانجليزي الكبير السير جون جيلجود قد خاض تجربة تؤكد هذه الحقيقة عندما قام بإخراج مسرحية «أهمية أن يكون اسمك إيرنست، لأوسكار وايلد. فقد كان شغله الشاغل أن يمنع الجمهور من الضحك أكثر مما ينبغي في بعض فقرات المسرحية. فقد ارتفعت الحرارة الكوميديّة، وطار المشاهدون بأجنحة النشوة إلى حد كاد يستحيل عنده أحيانا الاستمرار في التمثيل. فقد كان حوار أوسكار وايلد مشحونا بروح الفكاهة ومتفجرا باللماحية الساخرة بحيث أن أى تلميح قد يوحى بتجديد القهقهات مما يؤثر على إيقاع الأداء المسرحي تأثيرا سلبيا، خاصة وأن الممثلين تباروا في اضحاك الجمهور وذلك باعتصار كل سطر لاستدراار ما فيه من فكاهة. وهم بطبيعة الأمر لم يخرجوا على النص كما يحدث عتدنا في مصر مثلاً، فالنص عند مسارح الحضارة مقدس ولا يمكن المساس به، ولكن شكوى جيلجود كانت من

أسلوب الأداء والإلقاء، ولذلك أصر على تجنب الصخب حتى يتحقق الاستمتاع الكامل بالنص المسرحي. وفي رأيه أن المشاهدين أطفال، لا يعرفون ما الذى يحبونه، فإذا تركهم المخرج على حالهم، أمعنوا فى الضحك حتى يعجزوا عنه تماما ولا يجدوا بعد ذلك سوى أحاسيس الهستيريا أو الاكتئاب.

- فالفكاهة الراقية تنهض على أحكام لها من الجد والخطورة ما يجعل أية مسرحية كوميدية تهمة ثابتة أو تعرية صارخة لموقف أو اتجاه أو رأى معين. فالفكاهة لا تعنى بأية حال من الأحوال التسلية والتفريغ الذى يصل إلى حد التفاهة، وإن كانت فى الوقت نفسه تصدر عن تلك الطبيعة البشرية المتناقضة، التى سرعان ما تمل حياة الجد والصرامة والعبوس. فهى على حد قول شارل لالو فى كتابه «جماليات الضحك، دواء مطهر يزيل من النفس أدران الهم والقلق واليأس والحقد والتشاؤم، حتى يمكن أن نتحدث عن نوع من التطهير الكوميدى. كذلك فإن الضحك ظاهرة اجتماعية وسلاح موجه ضد كل من يحاول الانحراف بقيم المجتمع ومثله، لأنه كلما زاد عدد النظارة فى المسرح، زادت بالتالى ضحكاتهم واشتد هتافهم وتصفيقهم. ويرى برجسون أن الضحك ليس سوى استجابة لبعض مطالب حياة الجماعة، بمعنى أنه لا بد من أن تكون للضحك دلالة اجتماعية.

من هنا كان ارتباط روح الفكاهة بطبيعة المجتمع الذى نبتت فيه. فهى إذا كانت مصطبغة بالصبغة الفردية فى جانب منها، فإن شارل لالو يوضح أن موليير فرنسى قبل أن يكون مولييريا، وشكسبير إنجليزى

قبل أن يكون شكسبيريا، وبنارد شو إيرلندي قبل أن يكون شويا! فكل واحد من هؤلاء يعبر عن بلده وعصره، بقدر ما يعبر أيضا عن مزاجه الفردي؛ وهو على الرغم من أصالته الفنية لا بد وأن يكون صدى لتراث بيئته الفني، ولسان حال لما فيه من تيارات جمالية يتأثر بها ويؤثر فيها.

لكن إذا حاولنا تحليل الموقف الفكاهي بصفة عامة، فسوف نجد أن وظيفته الأولى هي تخفيف أعباء الواقع عن كواهلنا، وتخليصنا، ولو مؤقتا، من بعض تبعات الحياة اليومية وضغوطها. ولذلك يؤكد فولتير أهمية الفكاهة في حياتنا اليومية فيقول إنه لو لم نبق لنا ضحكاتنا لشق الناس أنفسهم؛ فويل للفلاسفة الذين لا يسيطرون بالضحك تجاعيدهم، لأن العيوس في نظره مرض عضال. ولذلك ذهب بعض علماء النفس إلى أن الفكاهة تقوم في حياتنا النفسية بدور أشبه بوظيفة اللاشعور، على نحو ما يتبدى في الأحلام مثلا. وهذا ما قرره فرويد نفسه في دراساته للنكتة وعلاقتها باللاشعور.

وكثيرا ما يقرر أساطين الفكاهة وجود علاقة بين الضحك والألم، أو بين الفكاهة والمأساة. فمثلا يقول تشارلي تشابلن إن الناس يتعاطفون معه بحق حينما يضحكون؛ فإنه ما يكاد الطابع التراجيدي لأي حدث يزيد عن الحد، حتى يصبح الموقف بأكمله باعنا على الضحك. وكما يقول عالم النفس الانجليزى ماك دوجال إن الضحك يجيء في الوقت المناسب، حتى يهينا شيئا من المناعة ضد تلك الجرعة الزائدة من الألم أو المأساة. كذلك يقول والت ديزنى إن الناس كثيرا ما يتعاطفون حين

يضحكون، والملاحظ أنه لما كان من دأب الأطفال أن يتعاطفوا بشكل مبالغ فيه، فإنهم قد يجدون أنفسهم مضطرين في بعض الأحيان إلى أن يغلقوا أعينهم حينما يكونون بإزاء بعض المواقف المروعة. كذلك فإن المضمون الجنسي يلعب دورا لا يمكن تجاهله في ميدان الفكاهة فقد كتب فرويد دراسة بعنوان «النكتة وعلاقتها بالعقل الباطن، حلل فيها الدلالات السيكولوجية المرتبطة بالنكات والفكاهات الجنسية، والتي غالبا ما تنطوي على عنصر تخفيف وراحة لأنها تحرر الإنسان، ولو مؤقتا، من أسر الأوامر والنواهي الأخلاقية التي تفرضها عليه الجماعة، فتدع له الحرية في أن يتعرض لتلك المسائل المحرمة أو المحظورة التي اعتاد في الغالب أن يتجنب الإشارة إليها. وفي الأدب العربي توجد نماذج لهذا النوع من الأدب الفكاهي في الأغاني، ومقامات بدیع الزمان الهمذاني، وعند الجاحظ وأبي نواس، وفي بعض جلسات أبي حيان التوحيدي الواردة في كتاب «الإمتاع والمؤانسة». أما في الآداب الأوروبية فهناك أمثلة طريفة لهذا النوع من الفكاهة عند الأديب الانجليزى تشوسر (١٣٤٠ - ١٤٠٠) والأديبين الفرنسيين رابليه (١٤٩٤ - ١٥٥٣) وأرمان سيلفستر وغيرهم من الأدباء الذين تركوا بصماتهم واضحة على الآداب الأوروبية في مراحلها المبكرة.

وقد روى مارسيل بانويل في كتابه «ملاحظات على الضحك، أن الملهى الليلي الباريسى المشهور «مولان روج، كان يستعين على اضحاك جمهوره برجل غريب الأطوار، وله قدرة فائقة على تفجير قهقهات الجمهور بمجرد ظهوره على خشبة المسرح! وكانت براعته تنحصر في موهبته العجيبة على إصدار أكبر عدد ممكن من الأصوات

الطبيعية غير المستحبة بنغمات خاصة، وأسماء متنوعة، وعلى النحر الذى يحلوه. كذلك هناك المسرحيات التى يصاب فيها العاشق المتلهف بنوبة اسهال حادة فى نفس اللحظة التى يلتقى فيها بحبيبة عمره، أو الخطيب السياسى المتفجر حماسة فى القضية التى يثيرها والذى ينبعث منه صوت غير مستحب فى الوقت الذى تشق فيه صيحاته العالية عنان السماء.

ولعل الإيجاز البليغ من أهم وأخطر أسلحة الفكاهة التى تخفى وراءها نقدا لاذعا لفكر أو سلوك معين. ولذلك قال شكسبير إن الإيجاز هو روح الدعابة أو الفكاهة. وكثير من الكلمات اللاذعة أو القفشات البارعة لا تعدو هذا النوع من الفكاهة. وليست التوريات اللفظية واللعب على الألفاظ سوى حيل لغوية تعتمد أساسا على عملية الإيجاز أو التكثيف، لأن اللفظ فى هذه الحالة يحمل معنيين، فينتقل الذهن فى لحظة واحدة من معنى لآخر، وبذلك يستجيب للمفارقة بالضحك.

وأسلحة الفكاهة موجهة دائما إلى كل الأنماط التى تخرج عن نطاق السلوك والفكر الإنسانى السوى. فكثير من الفكاهات المسرحية أو الروايات الهزلية التى تفجر ضحكات الجمهور، كما فى مسرحيات موليير أو لابيش على سبيل المثال، هى مواقف ترتد فيها بعض الشخصيات نحو مرحلة آلية ورتابة وتكرار يتنافى مع الطبيعة البشرية. وفى هذا يقول برجسون إن كل انحراف للحياة تجاه الآلية لا بد أن يثير ضحكائنا. وكثيرا ما لجأ أدباء الفكاهة والكوميديا إلى استخدام هذه الحيل مثل: سلوك آلى رتيب، فعل متكرر دون معنى، عبارة معادة

يردها اللسان على فترات منتظمة، لازمة حركية يؤديها أى عضو فى الجسم بصورة آلية مطردة. ومع ذلك فإن التكرار عندما يزيد عن حده، فإنه يضعف من قيمة الشحنة الفكاهية لكثير من المواقف، لأنها تفقد عنصر الجدة، ناهيك عن المفاجأة أو الدهشة.

كذلك تعاقب الفكاهة الخارجين على قيم الجماعة وتقاليدها، وذلك بجعلهم أهدافا لسهامها الساخنة الملتهية، مثلما تفعل بالمغرور أو البخيل أو الإنعزالي أو الثرثار أو المتعجرف أو الدعى أو الكاذب أو الواهم وغير ذلك من الأنماط التى تعجز عن التكيف مع الجماعة التى تعيش بين أفرادها. ولذلك فإن الأعمال الفكاهية غالبا ما تحمل أسماء مشتركة لأنماط عامة مثل «البخيل»، أو «الخاطبة»، أو «الحماة»، أو «عدو المجتمع»، أو «مريض الوهم»، أو «البرجوازي النبيل»، فى حين أن كثيرا من المآسى تسمى بأسماء أبطالها مثل «هاملت»، أو «عطيل»، أو «ماكبث»، أو «الملك لير»، وهذا يؤكد قول برجسون بأن المأساة تتجه دائما نحو الفردى أو الخاص، فى حين تتجه الملهاة إلى الكلى أو العام. فالفكاهة تنبع من النماذج العامة فى حين يتمثل محور المأساة فى شخصية واحدة تدور حولها كل أحداث المسرحية ومواقفها. وإذا صوّرت لنا المأساة بعض الأهواء والردائل العامة فإنها تدمجها فى الشخصية التى نتعاطف معها خوفا من مصيرها المحتوم.

ويجب ألا ننسى أن بعض ضروب الفكاهة قد تنطوى على استخفاف بالمبادئ الأخلاقية والقيم الإنسانية، وهو النوع الذى أطلق عليه فرويد مصطلح «الفكاهة المغرضة». ولا بد أن نعتزف بأن بعض النكات

الشعبية، والأعمال الأدبية البورنوجرافية الفاضحة، والرسوم الهزلية، والصور الكاريكاتيرية تهدف إلى الاستخفاف بالسلطة الأخلاقية، أو الاستهزاء بالقيم الدينية، لكن من الواضح ولحسن الحظ أن هذه الظواهر ما هي إلا استثناء من القاعدة العامة التي تؤكد أن الفكاهة الراقية على مر العصور لم تنفصل عن أهدافها الأخلاقية، برغم ما قاله شارل لالو بأن الضحكة الواحدة قد تكون أخلاقية أو عديمة القيمة الأخلاقية طبقاً للزاوية التي ننظر فيها إلى الموقف الفكاهي نفسه، أى أن نسبية المواقف قد تمنعنا من الحكم على الضحك حكماً عاماً مطلقاً نظراً لاختلاف الظروف الاجتماعية والثقافية والطبقية والحضارية. ومع ذلك يمكننا تقنين الحكم الأخلاقي في كل حالة على حدة دون مشقة، ذلك أن الحدود بين الفكاهة الراقية البريئة والفكاهة الرخيصة المغرضة واضحة لكل من يملك القدرة على الحكم الموضوعي العقلاني. فالفكاهة وسيلة فعالة لتصحيح أى انحراف في المسيرة السوية للحياة الإنسانية. ولعل هذا هو ما عناه الفيلسوف الانجليزي جيمس سلى حينما قال إن الفكاهة تساعد أعضاء الجماعة الواحدة على الحفاظ على كيانهما في حدود تقاليدها وعرفها، وذلك في مواجهة الجماعات الأخرى. لكن بالإضافة إلى دورها كسلاح للدفاع ضد ما يهدد الجماعة من الخارج، فإنها في الوقت نفسه سلاح داخلي يقوم بوظيفة النقد والإصلاح بالنسبة إلى الجماعة ذاتها، لأن بهجومه على العادات والأفكار البالية إنما يعمل على تجديد حياة الجماعة وتطويرها. وهذا هو ما حرص عليه كل الأدباء الذين اتخذوا من الفكاهة وسيلة وسلاحاً في أعمالهم للرقى بالإنسان المعاصر.

الفصل الرابع

اللاماحية بين الفكر والفن

تتبع الناقد ج. ا. سبنجارن في كتابه «مقالات نقدية من القرن السابع عشر، الجزء الأول»، تطور مفهوم اللاماحية أو البديهة عبر العصور. وكان أول تقنين أو تعريف لها بسيطاً للغاية، فلم تكن تعنى سوى القدرات المرتبطة بالحواس الخمس من نظر وسمع ولمس وذوق وشم والتي يملكها كل البشر وإن كانت بدرجات متفاوتة ثم تطورت إلى ما سمي بالحواس الخمس الداخلية وهي القدرة على توصيل الأفكار إلى الآخرين، والخيال، والرؤى الناقبة، وتقييم الأشياء، والذاكرة. ثم جاء عصر النهضة ليربط اللاماحية بالقدرة العقلية، ومملكة استيعاب الأفكار والمعاني والربط بينها في نسيج واحد، والعبقرية كمفهوم أرقى بكثير من مجرد القدرة على التعلم واكتساب المهارات المختلفة. فالعبقرية

تمنح أكثر مما تأخذ في حين أن التعلم في أفضل صورة يمنح على قدر ما يتلقى.

وفي القرن السادس عشر أصبحت اللماحية مرادفة لسرعة البديهة والحيوية الفكرية والعقلية التي تلتقط وتستوعب وتحلل وتنقد وتقوم ما يعجز عنه البشر العاديون بالكفاءة نفسها، كما ورد في كتاب الشاعر الانجليزي جون ليلي «تشریح اللماحية» عام ١٥٨٠. أما الشاعر فيليب سيدنى فقد عرف اللماحية في قصيدته «دفاع عن الشعر» عام ١٥٨٣ بأنها القدرة على إبداع الشعر وما يترتب عليه من نظرات ورؤى ثاقبة لجوهر الحياة، وهو المفهوم الذي ورد أيضا في قصيدة ميريز «كنز اللماحية» ١٥٩٨. أما الكاتب المسرحي بن جونسون فقد نشر كتابا نقديا عام ١٦٣٥ بعنوان «تيمبر» هاجم فيه بعنف الاستخدامات المختلفة والمتطرفة للماحية التي قد يسيء فهمها الآخرون، وخص شكسبير معاصره بهجومه اللاذع، ذلك أن بن جونسون من أنصار التجديد المتحفظ حتى لا يخرج الأديب عن ستن الأوائل.

وامتد رواج مفهوم اللماحية كمصطلح نقدي من كتابات دافينانت وهوبز، عام ١٦٥٠ إلى آراء بوب وأديسون عام ١٧١١ بهدف التفرقة بين ما سمي باللماحية الأصلية واللماحية المزيفة. وكان أديسون على وجه الخصوص قد سعى للتفريق بينهما في أعداد متعددة من مجلة «سيكتاتور» بين عددي ٦٢ و٥٨ عام ١٧١١، وأوضح أن اللماحية لا تنبع من أوجه التشابه فحسب بل من أوجه الاختلاف والتناقض أيضا. ففي حال التشابه لا بد أن تصنيف عنصر المفاجأة والدهشة. فنقول مثلا إن صور الغانية الفتنة أبيض كالثلج، وبارد مثله.

ففى اللماحية الأصلية يتم الربط بين الأفكار، أما فى اللماحية المزيفة فيتم بين الكلمات فقط. وفى مجال اللماحية المزيفة أو المفتعلة أو المصطنعة حدد أديسون اثنا عشر نوعا أساسيا: النظم الذى يعتنى بالقالب والوزن والقافية دون التفات إلى روح الشعر وجوهره؛ وحذف أحد حروف الكلمة وخاصة المتحرك فيها للإيحاء أو التلميح بمعنى آخر؛ واللغز الذى تستنتج فيه مقاطع الكلمة من عدة صور وأشكال مختلفة؛ والنظم الذى يعتمد على بيت يتبعه بيت آخر يردد صدها ولكن بهدف معنى مختلفين، أو نفس البيت الذى ينتهى بمقطع أو مقطعين يلحان أو يسخران من المعنى الرئيسى فيه؛ والقصيدة التى تعتمد فقط على النبرات المدوية المتغيرة للكلمة؛ والتلاعب بترتيب الحروف داخل الكلمة أو الاسم بهدف التلميح بمعنى مختلف أو لا معنى على الإطلاق؛ والقصيدة التى تحتوى أبياتا متتابعة مكتوبة خصيصا ليستنتج منها القارىء كلمة واحدة تشير إلى معنى غير موجود فيها أصلا؛ والكلمة أو الكلمات التى تكتب تاريخا معينا بالبنط الأسود والحروف الرومانية للتأكيد على أهميته دون التصريح بها، وكتابة القوافى بدون أبيات كما نجد فى الشعر الفرنسى بصفة خاصة؛ والقافية المزدوجة التى تتلاعب بالمعنى، أى قافية لها صوت واحد ومعنيان مختلفان؛ والتلاعب بالألفاظ الموجود فى كل اللغات والذى تضيع دلالته إذا ما ترجم لإرتباطه باللفظ أساسا؛ وأخيرا صلاة الساحرات أو القوافى التى توحى بتعاويد وطقوس سرية. مثل البيت الشعرى التى يقرأ من الأول للآخر فيوحي بحلول البركة، لكن إذا قرأ من آخره إلى بدايته فإنه يعنى حلول اللعنة، أو ما يشبه سجع الكهان فى العربية.

أما اللماحية الأصيلة الحقيقية فتعنى المهارة والسرعة والحدة في التفكير والخيال والرؤية والرؤيا كما يحددها دافينانت في «مقدمة لجونديبيرت، ١٦٥٠، وهوبز في كتابه «ليثانيان، ١٦٥١. فاللماحية في نظرهما هي تلك العصا السحرية التي لا تكف عن ضرب طيات وطبقات الذاكرة فتعيد تجديدها والتوليف أو التناقض بينها لانتاج فكر جديد. وهونفس المفهوم المرتبط بالعبقرية الشعرية عند درايدن في «أنوس ميراب، ١٦٦٦، ويويل في «تأملات، ١٦٦٥، وجون لوك في «مقالات، ١٦٩٠، وأديسون العدد رقم ٦٢ من مجلة «سبكتاتور، ١٧١١. ولقد اتفق كل من بويل وأديسون وويلستيد على اعتبار عنصر المفاجأة والدهشة عنصرا هاما وهدفا أساسيا من أهداف اللماحية.

وكانت اللماحية - ولا تزال - عنصرا حيويا ومطلوبا في الإبداع الشعري، إذ أنها طاقة كامنة ومتجددة لملاحظة ورصد أوجه التشابه بين عناصر الحياة التي لا تبدو مترابطة، وأوجه التناقض والاختلاف بين تلك التي تبدو مترابطة داخل إطار مفتعل ومصطنع، وبالتالي فإنها قادرة على توليد معان ومفاهيم جديدة من كلمات قديمة لم تكن لتعنيها، أي أنها أرقى وأسمى وأعلى من مستويات التعبير العادية والتقليدية، وهو المفهوم الذي ورد في قصيدة «ابراهيم كاوي، «عن اللماحية، ١٦٥٦.

ومع ذلك لم تسلم اللماحية من الهجمات التي وجهت إليها بصفتها ألعيب صيبانية وحيل لفظية لا تعنى كثيرا على مستوى الفكر الناضج. ولعل هذا كان السبب في اصرار هوبز على الربط بين اللماحية والنظرة

العقلانية الثاقبة أكثر من ربطها بالخيال الجامح الذى يقلل من قيمتها الفكرية. وقد عرفها بأنها الحكم المنطقى العقلانى بدون خيال جامع، وليست الخيال الجامح بلا حكم منطقى عقلانى، وذلك على الرغم من أن الناس يفضلون عامة الخيال الجامح على العقل والمنطق، ولا يعرفون من اللامحية سوى هذا العنصر البدائى الفج الذى لا بد أن يوضع تحت سيطرة المنطق وإلا فقد كل شيء معناه. ومع ذلك فقد هاجم بعض المفكرين والفلاسفة فشل المنطق العقلانى وعجزه عن السيطرة على شطحات الخيال التى غالباً ما تسعى باللامحية والبدئية إلى مجالات أبعد ما تكون عن الفكر الراقى الناضج، وهى المجالات التى يحددها أديسون وسبق التنويه عنها.

ولعل مفهوم الشاعر جون درايدن للامحية والبدئية يتفق إلى حد كبير مع مفهوم هوبز، فاللامحية فى نظره هى التناسب والتناسق بين الأفكار والكلمات، بين المضامين والمواد المستقاة من الحياة وبين أساليب التعبير عنها. وهو المفهوم الذى نجده عند الكسندر بوب فى قصيدته «مقالة فى النقد، ١٧١١». ومع ذلك فقد أساء أديسون فهم المعنى الذى قصده درايدن فيما يتصل بالتناسب بين الأفكار والكلمات، وهاجمه فى مجلته «سبكتاتور» على أساس أن هذا التناسب كان أحد الملامح التى ميزت الزخرف اللفظى الذى اشتهرت به الكلاسيكية الحديثة، وكانت نتيجته التفرقة المصطنعة بين اللامحية والبدئية وبين روح الفكاهة والدعابة، على أساس أن هذه التفرقة تفقد اللامحية عنصر المفاجأة والإثارة الفكرية المطلوبة. فاللامحية ليست مجرد حضور بدئية أو ذلاقة لسان أو كلمات منمقة براقة، لكنها الطاقة التى تمكن الكاتب

المسرحى من اكتشاف الحوار المناسب لطبيعة شخصياته، وتغيير
المواقف وتطويرها بالمعية تسرى بالحياة والذكاء فى ثنايا المسرحية كما
قال الكاتب المسرحى توماس شادويل فى مقدمة مسرحيته «عشاق
مكتتبون» ١٦٦٨ . وكان الهجوم على اللماحية البحتة التى لا تخرج عن
نطاق اللعب بالألفاظ والقفشات بمثابة المدخل الطبيعى للهجوم على
الإباحية والأدب الفاضح الذى يدعو للفجور والفحشاء تحت غلالة
خادعة من اللماحية وإدعاء الذكاء، وهو التعبير الذى استخدمه شيفيلد
عام ١٦٨٢ فى «مقال عن الشعر» .

ومع ذلك فقد خسر دعاة اللماحية القائمة على الأصالة الفكرية
والنضوج العقلى من خلال رصد أوجه التشابه والتناسب بين الأفكار
والمفاهيم واستخراج دلالات جديدة غير مباشرة من بين طياتها دون
أن تكون مكتوبة فعلا مما يمنح فرصة للفكر المنطقى العقلانى للتفاعل
والتوليد، خسروا معركتهم ضد دعاة البديهة الحاضرة، واللسان الذلق،
والقفشة اللاذعة، واللعب بالألفاظ، والقافية المحبوكة، والضحالة
الفكرية. وأدى هذا بدوره فى القرن الثامن عشر إلى احتقار اللماحية
وسرعة البديهة بصفة عامة، وفضل كبار الأدباء تعريفها بمصطلحات
أخرى حتى لا يتهموا بالضحالة والتفاهة والسطحية. فمثلا يحاول بوب
فى قصيدته «مقالة فى النقد، تعريف اللماحية الحقيقية الأصيلة بقوله:
«اللماحية الحقيقية هى الطبيعة وقد ارتدت أبهى حللها وغالبا ما
تكون الفكر الذى تعجز الكلمات عن تجسيده،

لكنه سرعان ما مجد الإبداع اللفظي عند حديثه عن هوميروس .
 ولذلك نجد الناقد جوزيف وارتنون في «مقالة عن بوب» عام ١٧٥٦
 يفضل الخيال الخلاق والمتوهج لأشعار ميلتون وملاحمه على اللماحية
 التي تميزت بها أشعار درايدن وبوب . كذلك هاجم صامويل جونسون
 في كتابه «حياة الشعراء وسيرهم» ١٧٧٩ الشاعر إبراهيم كاوي بصفته
 المثل الأعلى لدعاة اللماحية الحقيقية الأصيلة التي لم يجد جونسون
 فيها سوى ربط مفتعل بين صور متنافرة لا تشابه فيما بينها، مثل
 الربط المقحم المصطنع بين الطبيعة والفن، وقلب الدلالات والمقارنات
 والتشبيهات والإشارات والإيماءات والتلميحات رأساً على عقب «بل ولى
 عنقها من أجل استنباط أوجه تشابه لا تضيف جديداً . ولذلك كانت
 اللماحية منهجا لا يناسب القدرات الشعرية لأن المتحمسين والممارسين
 لها لم ينجحوا في تجسيد وتحريك المشاعر والعواطف . ويضيف وليم
 هازلت في كتابه «كتاب الكوميديا الانجليزي» ١٨١٩ في فصل بعنوان
 «اللماحية وروح الفكاهة» أن اللماحية هي اكتشاف أوجه التشابه
 الواضحة في الأشياء التي تبدو متناقضة تماماً فيما بينها، في حين أن
 الخيال يسعى لإيجاد المقارنات بين الأشياء المتشابهة أو الأشياء التي
 تثير المشاعر والعواطف المتشابهة وإن بدت متنافرة في الظاهر .

وقد اصطلح النقاد بصفة عامة في مجال المقارنة بين اللماحية
 والفكاهة على أن الأولى توحى بالأمعية الفكرية دون أن تصرح بها
 في حين أن الثانية تدعو إلى التعاطف أو المشاركة في عالم خيالي من
 صنع الأديب، فالقراء أو المتفرجون يشتركون في أحاسيس الدعابة أو

السخرية أو الضحك من المواقف والشخصيات والأفكار التي يلتقون بها على صفحات الكتب أو على منصة المسرح. ولذلك أصبحت اللامحبة في العصر الحديث تعنى القدرة العقلية والوعى الحاد الذى يستخرج أوجه التشابه المثيرة بين الأشياء التي لا تبدو عادة ذات علاقات واضحة فيما بينها، وهي تتطلب من المتلقى نفس الوعى الحاد الذى يفترض فيمن يبتدعها، حتى يلتقط ما يقصده فى لمح البصر دون شرح أو تفسير، إذ أن الشرح يفسد أثرها على الفور. ولعل النكتة بصفتها أوضح مظاهر اللامحبة توضح لنا هذا المعنى ، فلا بد أن نفهم فور لقائها، أما إلحاقها بمذكرة تفسيرية فلا يعنى سوى تحويلها إلى قصة قصيرة مملة. وهي تمزج اللامحبة بالفكاهة فى لحظات خاطفة تجمع بين الوعى الحاد المرتبط باللامحبة والارتياح الكوميدي المرح والمبهج المرتبط بالفكاهة ولذلك غالبا ما نجد فى النكتة اللعب بالألفاظ إلى جوار الموقف الفكاهي، أما النكتة التي تعتمد فقط على الألاعيب والحيل اللفظية فشأنها فى ذلك شأن اللامحبة المزيفة أو المفتعلة التي ينتهى تأثيرها بمجرد الانتهاء من الاستماع إليها أو قراءتها.

أما اللعب على الألفاظ أو بالألفاظ فسمة قديمة قدم اللغات الحية، وقل أن تخلو لغة منه؛ وإن كان معظم الفلاسفة والنقاد قد اعتبروه أحط أنواع اللامحبة. لكن بحكم أن بدايات كل الآداب الإنسانية كانت شفوية فإن تأثيرها الأساسى والأولى اعتمد على وقعها الصوتى على الأذن أى أن إيقاع اللفظ كان أسرع أثرا على المتلقى من وقع المعنى عليه. وهذه ظاهرة متوقعة فى كل اللغات، إذ أن أية لغة مهما بلغ ثراؤها فى

المرادفات والكلمات فإنها مستمدة كلها من حروف أبجدية محددة، وبالتالي لا بد أن يحدث تكرار أو تشابه من شأنه أن يمنح فرصاً مستجدة للعب على الألفاظ. ولا تقتصر هذه الظاهرة على الأدب الفكاهي أو الساخر فحسب بل تتسلل إلى الأدب الجاد، فمثلاً نجد في المقدمات الجادة والعميقة التي كتبها الأديب الروماني تيرنس المسرحياته لعباً على الألفاظ أكثر تنوعاً ولماحية وعمقا من اللعب الذي احتوت عليه مسرحياته الكوميديّة نفسها. كذلك استخدم الكاتب والمؤرخ الإغريقي بلوتارك اللعب على الألفاظ من أجل إحداث إثارة فكاهية ساخرة لكن في حدود الأناقة واللياقة اللفظية. لكن اللعب المفضل كان على الألفاظ التي تحتوى على فروق صوتية طفيفة للغاية.

وكان شكسبير من رواد اللاعبين على الألفاظ في حذق شديد وتنوع يصعب حصره، أحياناً من أجل إثارة الضحك فحسب وأحياناً أخرى بهدف التلميح اللاذع الساخر بل والمرير كما نجد في أول حديثين لهاملت. وغالباً فإن شكسبير يهدف من اللاعب على الألفاظ إحداث أثر حاد في نفس المتفرج بحيث يمتد داخله طوال أحداث المسرحية ويساعده على اكتشاف الدلالات الحقيقية الكامنة في المواقف المتتابة. وقد تعددت أنواع اللعب على الألفاظ مع كثرة استخداماتها، منها على سبيل المثال: التلميح الذي يثير الشكوك ويتهرب من الإجابة المباشرة التي قد يختلف معناها من مستمع لآخر، والسؤال الذي يزيد الموقف غموضاً على غموض مما يتسبب في حيرة المستمع الذي يظن لأول وهلة أن أوجه التشابه بين اللفظين واضحة للغاية من خلال السياق، لكن بمجرد اكتمال السؤال يكشف خطأه؛ واللعب على كلمة

واحدة لها أكثر من معنى مثل قول الشاعر العربي: دعوني فإنني آكل العيش بالجبن؛ واللعب على معنى واحد له أكثر من لفظ يعبر عنه؛ واللعب على صوت واحد له أكثر من دلالة؛ واللعب على ألفاظ متشابهة إلى حد كبير لكنها غير متطابقة بطبيعة الحال؛ والتطوير المتعمد في المعنى من لفظ إلى آخر كما يفعل الفنان محمود شكركو في قافيته الشهيرة؛ والتغيير الطفيف في كلمات حكمة معروفة بحيث ينقلب معناها الأصلي رأساً على عقب.

ونظراً للثراء البالغ الذي تتميز به اللغة العربية في الألفاظ والمعاني المتشابهة، فقد كان لفن اللعب على الألفاظ القدر المعلى في مجال اللماحية وسرعة البديهة على مر العصور، وخاصة وسط من عرفوا بالظرفاء. ففي مصر مثلاً لجأ الناس إلى هذا الفن لمقاومة سلطات الاحتلال وفي الوقت نفسه للهروب من بطشها. إذ يصعب اثبات المعنى الحقيقي على قائله. وهم الذين اخترعوا ما يسمى بالقافية، إذ يدعى اثنان للمبارزة الفكاهة في مواضيع محددة ويبدأ أولهما فيذكر شيئاً ويقول الثاني، أيش معنى، أى ما معنى هذا؟ فيجيبه الآخر اجابة مسكتة ضاحكة. ويضرب شوقي ضيف بعض الأمثلة لهذا في كتابه «الفكاهة في مصر، فيقدم قافية الهندسة، التي يقول فيها المتبارزان:

الأول : خاطرك دايما

الثاني : ايش معنى؟

الأول : منكسر

الثاني : الهم على رأسك

الأول : ايش معنى؟

الثانى : محيط

الأول : أكثر نومك

الثانى : ايش معنى؟

الأول : فى الزاوية

الثانى : انت والحمار

الأول : ايش معنى؟

الثانى : متساويان

وكان محمد البابلى من أشهر اللاعبين على الألفاظ فى أوائل هذا القرن عن طريق الاشتقاق اللفظى أو تحريف اللفظ عن معناه الأصلي، مثال ذلك أنه سمع المغنى يقول:

- أهل السماح دون فين أراضيهـم .

فأجابه من فوره:

- فى البنك العقارى .

كذلك كانت الأزجال التى اشتهر بها أحمد القوصى وعزت صقر ويونس القاضى وحسين الحلبى وحسين مظلوم ومحمود رمزى نظيم وبيدع خيرى وبيرم التونسى زاخرة بالتلاعب اللفظى الذى يصيب أكثر من معنى فى لحظة واحدة . واستخدمت هذه الأزجال فى نقد كل مظاهر الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والفكرية .

لكن تظل اللماحية فنا محليا مرتبنا بحدود اللغة التي يتعامل بها، ذلك أن الترجمة كفيلة بإفساد أثره تماما وذلك لارتباطه باللفظ أكثر من ارتباطه بالمعنى فى أحيان كثيرة . أما فنون التهكم والفكاهة والسخرية فتبدو أكثر قدرة على تجاوز الحدود اللغوية واللفظية لتعاملها مع المعنى الإنسانى العام، ولذلك يمكن ترجمتها إلى لغات دون أن يضيق منها سوى ما كان مرتبطا بظواهر مغرقة فى المحلية سواء على مستوى الزمان أو المكان، أو مرتبطا بالدلالات اللفظية التى لا يفهمها سوى أبناء اللغة الواحدة . ومع ذلك فإن أسلوب اللماحية يكاد يكون متشابها فى معظم اللغات التى تغرم به وإن اختلفت دلالاته ومعانيه وإشاراته وإيحاءاته من لغة لأخرى .

الفصل الخامس

الإرتياح الكوميدي

نادى الإتجاه الكلاسيكى فى الأدب بعدم المزج بين التراجيديا والكوميديا لأن هذا المزج من شأنه أن يفسد أثر كل منهما على حدة . وهو الاتجاه الذى أكدده أرسطو فى كتابه «فن الشعر» وكان يبرز كلما برزت الاتجاهات الكلاسيكية على سطح الأدب الإنسانى . لكن الأدباء الذين رفضوا إحالة أعمالهم إلى مجرد تطبيقات للمبادئ الكلاسيكية ، وجدوا فى هذه الظاهرة فصلا تعسفيا بين شكلين من الأشكال الدرامية يمكن أن يفيد أحدهما الآخر ويثريه . فالحياة الإنسانية بمتناقضاتها وألغازها اللانهائية أشمل وأضخم من أن تصنف بهذا التقنين التعسفى . والأديب الذى يحاول استيعاب معنى الحياة وأبعادها المتعددة فى أعماله ، عليه أن يرفض أى تصنيف مسبق يفرض نفسه على ملكة الإبداع والإنطلاق التلقائى عنده .

من هنا جاء ما يسمى بالارتياح الكوميدي، وهو حلقة أو موقف أو فاصل كوميدي مرح في مسرحية جادة أو مأسوية. وكان الهدف الواضح من هذا العنصر إتاحة الفرصة للمتفرج كي تسترخي أعصابه المشدودة نتيجة للتوتر النابع من تتابع الأحداث التراجيدية، وكي يستطيع استيعاب المواقف التراجيدية التالية بعد تجديد طاقته النفسية من خلال الارتياح والاسترخاء العصبى. أما إذا استمرت الأحداث بنفس الإيقاع التراجيدى الرهيب، فربما أجهدت أعصاب المتفرج وخاصة المتفرج الذى لم يتمرس على مشاهدة مختلف أنواع التراجيديا.

وينقسم الارتياح الكوميدي إلى نوعين رئيسيين: الأول نوع عضوى ينبع من نسيج المسرحية ويصب فيه، ويدفع الحدث إلى الأمام ويطوره، ويكشف عن جوانب جديدة لم تكن نراها فى الشخصيات، بل ربما وضع فيه المؤلف فلسفته التى كتب من أجلها مسرحيته أساسا. فعلى الرغم من أن المسرحية قد تعد تراجيديا حادة عنيفة، فإن فصل أو فصول الارتياح الكوميدي فيها يمكن أن تكون من المشاهد الرئيسية فيها بحيث يمكن أن تفقد الكثير أو ينهار بناؤها إذا حذفت منها. وكان شكسبير يعتمد على شخصيات المهرجين والخدم والأصدقاء وعامة الناس فى إبراز عنصر الارتياح الكوميدي فى مسرحياته. وهو عنصر أثار كثيرا من الجدل بين نقاد شكسبير الذين انقسموا إلى مؤيد ومعارض على مر العصور. ومع ذلك ظل الارتياح الكوميدي فى مآسى شكسبير من أبرز الملامح المميزة لمسرحه. فمثلا لا يمكن حذف عنصر الارتياح الكوميدي الذى يتجسد فى شخصيات عامة الناس فى مسرحية

«بوليوس قيصر»، أو في شخصيات الخدم وميركوشيو صديق روميو في «روميو وجولييت».

والنوع الثاني من الإرتياح الكوميدي يتهمه النقاد بأنه غير عضوي لأنه لا يؤثر في مسار الأحداث وتطوير الشخصيات، بل يظهر ليحدث أثرا كوميديا مؤقتا في نفس الجمهور ثم ينتهي تماما باختفائه من تيار الأحداث فمثلا يظهر خادم أو رجل ريفي ساذج أو عجوز لا يعي شيئا، يثير ضحكات الجمهور بتصرفاته البعيدة عن المنطق ثم يختفي وكأنه لم يكن. ويحاول بعض النقاد تطبيق هذا المفهوم على بعض مسرحيات شكسبير، مثل شخصية المهرج في «عطيل»، وحفار القبور في «هاملت»، والفلاح الذي يحضر الأفعى السامة في «أنتوني وكليوباترة»، والبواب، أو الحارس في «ماكبيث» وقد نختلف أو نتفق مع هذه التحليلات النقدية لأننا لا يمكن أن نأخذها على علاقتها وخاصة في حالة شكسبير، ولكن الشيء المؤكد أن عنصر الارتياح الكوميدي في هذه المسرحيات يمهد ذهن المتفرج وأعصابه لاستيعاب قمة الأحداث التراجيدية التي ستنتهي بعدها المسرحية. وبالتالي يمكننا القول بأنه إذا لم تكن هذه المشاهد عضوية على المستوى الدرامي للبناء، فهي عضوية على المستوى النفسي للمتفرج.

ولا شك أننا نرفض عنصر الارتياح الكوميدي إذا كان مقحما تماما على البناء الدرامي الجاد للمسرحية. فأحيانا يدخله الكاتب المسرحي كنوع من تلبية رغبة الجمهور في مشاهدة مفارقة كوميديية مضحكة تكون سائدة في تلك الفترة، وهي مفارقة ليست لها أدنى علاقة

بمضمون المسرحية ومعناها، وبالتالي فإنها تفسد الأثر الكلى للمسرحية. بل إن قدرتها على الإضحاك تنتهي بانتهاء المرحلة التي كتبت فيها المسرحية، ومن ثم تتحول إلى جسم غريب دخيل عليها. ولذلك فإن المعيار النقدي الذي يمكن أن نقيس به النتيجة الدرامية لعنصر الارتياح الكوميدي، هو المعيار الذي نطبقه على أى عنصر آخر من عناصر العمل الفني: أى مدى مساهمته الوظيفية فى تطوير العمل الفني وبنائه المتكامل فى النهاية.

ولكن بعض النقاد والمفكرين استمروا الهجوم على شكسبير فى هذه النقطة بالذات. هاجمها فولتير فى «هاملت»، كما هاجم كولردج مشهد الحارس فى «ماكبث»، واعتبره مثيرا للاشمئزاز، بل كان يظن أنه لم يكن من تأليف شكسبير بل كان مجرد خروج على النص من قبل الممثلين الذين يميلون إلى الارتجال واستجداء ضحكات الجمهور بأى ثمن، ويبدو أن هذا الارتجال قد سجل فيما بعد فى النص الأسمى. لكن الناقد دى كوينسى فى مقالته «عن قرع البوابة فى «ماكبث»، أظهر قيمته الدرامية لأنه يعمق وعينا بما سبق من أحداث.

ويبدو أن هجوم النقاد على هذه النوعية من المسرحيات يرجع إلى اعتقادهم بأن الشخصية الكوميديّة قد أقحمت فى قلب الأزمة التراجيدية، ومن ثم فهي خارجة عن حدود الحدث الرئيسى وطبيعته، وغير ذات موضوع بالنسبة للكارثة التى على وشك أن تحيق بالكل. أى أنها تصرف نظر الجمهور عن الأحداث المأسوية الجارية على قدم وساق دون أية ضرورة درامية ولكن نسي هؤلاء النقاد أن وعى

الجمهور بقمة الأحداث المأسوية المقدم عليها لا يتلشى بهذه البساطة، وخاصة أن عنصر الإرتياح الكوميدي يمنحه فرصة لاسترخاء أعصابه، بالتالي قدرة اكبر على تأمل ما حدث، أو ما سوف يحدث. ولذلك فإن الإرتياح الكوميدي يعد جزءا حيويا من النسيج الدرامي ككل.

وبالإضافة إلى الكوميديا فإن هناك عناصر أخرى يمكن أن تسبب الإرتياح للجمهور. منها الإسراف في إثارة العاطفة والشجن، هذه الإثارة التي تعد تنقيسا عن المشاعر المشحونة والمكبوتة، كما يحدث في مأساة «الملك لير» من خلال الحماقات الجريئة التي يرتكبها المهرج، كذلك يمكن أن تقوم الموسيقى بهذا الإرتياح مثلما يحدث في «هاملت» عندما تغنى أوفيليا، وبضيف أبعادا جديدة إلى روح التهكم الدرامي. أو كما يحدث في مسرحية «اغتصاب لوكريس» لتوماس هيوود معاصر شكسبير، عندما تتعنى البطلة بضرورة إلقاء الهموم وراء الظهر والترحيب باليوم الجديد، فالليل قادر على نفي الالام بعيدا عن الإنسان. وهي الأغنية التي تمهد لبزوغ العجز على البطلة الجميلة الساحرة.

وقد قال الناقد فيلو باك في كتابه «الخيوط الذهبية» ١٩٣١ إن الفقرة الكوميديية لا تقوم في الحقيقة بدور الإرتياح، لكنها تجسد متناقضات الوجود وعيبيته الفارقة لكل معنى، وتقوى في الوقت نفسه روح التهكم من ضياع الإنسان في مراجعة مأساة الوجود. فالحارس في «ماكبث» يستدعى أرواحا أو أشباحا خيالية عبر الممر المغطى بأزهار الربيع والموصل إلى شلة الأبدية، هذا في اللحظات التي كان ماكبث يتكوى بنارها فعلا. ويصف فيلو باك الابتسامة المرة التي تقابل بها الفاصل

الكوميدي بأنها تكثيرة رأس الموت سخرية واستهزاء من مصير الإنسان الضائع وربما جاء الإرتياح نتيجة لثقة المتفرج بأن ما يحدث على منصة المسرح ليس واقعا فعليا وإنما هو مجرد فن يتلاعب بشعور الناس. وهذا ما يطلق عليه النقد اصطلاح «المسافة النفسية» أو السيكولوجية، التي تفصل بين المتلقي والعمل الفني على أساس أن الأحداث والشخصيات والأجاسيس التي يجسدها العمل ليست لها علاقة بالضرورات العملية والملحة للحياة اليومية. وهذه المسافة تتسع وتضيق من متلق لآخر حسب ثقافته وبيئته ودرجته ووعيه الإنساني والفني. وكلما اتسعت، زادت درجة الإرتياح عند المتلقي، لكنه قد يخسر أحاسيس ممتعة كثيرة إذا زادت درجتها إلى الحد الذي تتقطع فيه كل الوشائج الحسية والشعورية بين العمل الفني والمتلقي.

وهناك من النقد من يؤكد وجود التطهير الكوميدي بنفس الدرجة التي يوجد بها التطهير التراجيدي الذي نمارسه في حضور المأساة من خلال إثارة عطفنا على البطل الذي يشاركنا في الضعف الإنساني، وإثارة خوفنا من مصيره الرهيب الذي لا يملك منه مفرًا. يقول الناقد جيلبرت مري إنه إذا كان أرسطو قد نادى بنظرية التطهير التراجيدي فإن فرويد يعد رائدا لنظرية التطهير الكوميدي، لأنه يرى في النكتة طاقة تطهيرية تحريرية وليست مجرد شحن وإثارة. وهو يقصد بالنكتة الموقف الكوميدي على المنصة، ويتساءل لماذا نضحك للنكتة؟ من الممكن تفسير مضمون النكتة، ولكن تفسيرها لا يضحك. فالمضمون الفكري ليس جوهرها. إنما المهم هو أن «نرى» النكتة متجسدة أمامنا. وهذه التجربة أشبه بالصدمة، ولكن بينما تكون الصدمة عادة مزعجة،

فإن هذه الصدمة تفتح فى داخلنا باباً ينطلق منه فجأة طوفان من الإرتياح والسعادة والحبور. والناس فى حاجة إلى هذا الطوفان المنطلق المريح نتيجة لكبتهم الكثير من أقوى رغباتهم. فالكوميديا تلطف مخاوفنا وتساعدنا على تجنب الجانب المأسوى المرعب فى الحياة. فالموانع تزول مؤقتاً، والأفكار المكبوتة يسمح لها بدخول الوعي، ونستشعر قوة ولذة تتمثلان فى الإنشراح والبهجة. إن الكوميديا شكل من أشكال الفرغ القليلة التى يمكننا الحصول عليها عندما نشاء، ولذلك فإنها تقدم لاستمرار البشرية خدمة هائلة.

ومن الواضح أن الارتياح الكوميدي يساعد المتفرج على التحلل المؤقت من تعاطفه المستمر المرهق مع البطل التراجيديدى. فالكوميديا بطبيعتها ضد التعاطف، وهى تمنح المتفرج فرصة التفكير العقلانى الخالى من التشنج، ومن ثم فإن درجة استيعاب الأحداث عند المتفرج تزيد سواء بالنسبة للموقف الكوميديى الراهن أو بالنسبة للمواقف التراجيديدية التالية والمتصاعدة وبصفة عامة فإن الفروق التقليدية بين الكوميديا والتراجيديدى هى فروق من وضع النقد الذين يميلون إلى تصنيف الأنواع الأدبية على سبيل تسهيل مهمة التحليل النقدي. وهذا لا يمنع الأديب من مزج ما يحلوه من عناصر قد تبدو متناقضة ظاهرياً، طالما أنه قادر على صهرها تماماً فى بوتقة الشكل الدرامى. ولذلك يقول الناقد إيريك بنتلى إنه إذا كانت المأساة مناحة طويلة ومستمرة، لا رثاء يكبحه الوقار، وإذا كانت مهمتها إرواء شقاء الحياة ورعبها، فإن الكوميديا لا تروى مشاعر المتفرج بل تحيطها بالحواجز والحدود، وتواجهها بالألأعيب والحيل، والمشاعر التى تعالجها الكوميديا

لا تختلف بالضرورة عن مشاعر المأساة، ولكن طريقة المعالجة هي المختلفة. فالكوميديا غير مباشرة، وساخرة. وإذا كانت تثير الضحك فإنها تعنى البؤس. وإذا سمحت للبؤس بالظهور، فإنها تتخطاه بإشاعة روح المرح والسخرية من كل السلبيات. فإذا كان المضمون هو نفسه تقريبا بالنسبة لكل من التراجيديا والكوميديا، فإن اختلاف أسلوب المعالجة لا يحتم الفصل بينهما. وقد أثبت بنتلى فى كتابه «حياة الدراما» أنه بالجدل يمكن اكتشاف الكوميديا كفن أشد سوادا من المأساة. ويكفى للتدليل على هذا أن ما يعرف بالكوميديا السوداء، أصبح من أرسخ أنواع الدراما فى الأدب العالمى الحديث.

إن الشر هو المضمون الأساسى لكل من الكوميديا والتراجيديا، وإن كان الشيطان يلبس رداء يتنوع ويختلف بينهما، فإن التشبث بالحياة برغم صعوبة البقاء يجعل ثمة خطوطا مشتركة بين البطل الكوميدي وزميله التراجيدي. فإذا كان الأول يتشبث بالحياة، والثانى على أهبة الاستعداد لملاقاة مصيره، فإن فى التشبث بالحياة صعوبة تعادل صعوبة الموت نفسه. إنها صعوبة كامنة فى جوهر الحياة كلها. قال جان كوكتو إنه فى نهاية الأمر، نكتشف أن كل شىء فى الحياة يمكن معالجته إلا صعوبة الكينونة، إنها الصعوبة المستحيلة التى لا يمكن معالجتها ولا شك أن الكوميديا تقر هذا الوضع حزنا أو سخرية. والحس الكوميدي يحاول أن يدارى ويعالج صعوبة الكينونة التى يجابهها الإنسان فى كل لحظة يعيشها، لأن الحياة اليومية، وإن يكن فيها تيار خفى من روح المأساة، فإن تيارها الرئيسى يشكل مضمون الكوميديا بصفة عامة.

ويقول النقاد عن الكوميديا التي تحقق الجلال والوقار، انها تتجه صوب المأساة. ولكن هذا القول يناقض تصنيفات النقاد أنفسهم عندما يفصلون بين الكوميديا والتراجيديا، وخاصة أنه لو عنوانت أية كوميديا من هذا النوع على أنها مأساة، فإنهم يقولون إنها تنهاوى إلى مستوى الكوميديا. ويستشهد بنتلى بمسرحية موليير «دون جوان» فيقول إن فيها شيئا رائع السموم والغموض، حتى ليصعب على المرء أن يذكر أية مأساة فيها جو بهذا الجلال والوقار والسموم. إن عالم التراجيديا يخلق بأسلوب مباشر من خلال الكلمات الرصينة والمواقف الجليظة والشخصيات النبيلة والأداء الوقور في النهاية، أما عالم «دون جوان» فإن موليير يقيمه على الجدل بين روح المأساة الكامنة ومظاهر الكوميديا المنطلقة، أى على نحو غير مباشر، فنحن نشعر بالجلال لكننا لا نراه متجسدا على المسرح. ولذلك فإن المتفرج العابر يربط التراجيديا بالسموم، والكوميديا بالهبوط. لكنه لا يعلم أن الفن الإنسانى كله ينزع إلى السموم.

وحتى الكوميديا السوداء التي تستخرج الكوميديا والسخرية من احساس الأديب بعيب الحياة وانعدام معناها، تسعى إلى هذا السموم. فعلى الرغم من مظاهر التخطيط والضياع الموجودة فى أعمال صامويل بيكيت، ويوجين أونيسكو، وفريدريش دورينمات، وجان جينيه فإنها تحاول استخلاص معانى السموم الإنسانى من بين هذا الحطام الأخلاقى والمعنوى والإنسانى الذى تخلف عن الحرب العالمية الثانية، وهى تجمع بين الإرتياح الكوميدي والمرارة المأسوية كنتيجة طبيعية لرفض أدباء ما بعد الحرب الثانية كل التصنيفات والأشكال الفنية التقليدية. بل منهم من حاول كتابة ما أسماه الرواية الضد أو اللارواية، والمسرح الضد أو اللامسرح.

وإذا عدنا إلى الوراء من الحرب العالمية الثانية إلى عهد أفلاطون نجد أن أفلاطون في محاوره، المأدبة، لم تفتت فكرة مزج الأحداث المأسوية بالكوميديا لأن الحياة تقدم لنا أمثلة عديدة من هذا المزج، ورغم أن أفلاطون لم يدرك مفهوم الدراما كجنس أدبي وفنى محدد. ولأفلاطون الحق في هذا لأن الذات تنال من العقاب في الكوميديا ما تناله في المأساة، ولو أن ذلك قد يتمثل في القضاء على إدعاءات الأنذال والمغفلين، لا تهور البطل واندفاعه. وتتهىء كلتا التراجيديا والكوميديا الأدلة المقلقة، عن طريق الحكمة والشخصيات، على أن الحياة لا تستحق أن تعاش؛ ومع ذلك فإنهما تنقلان إلينا في النهاية الإحساس بجلال معاناتنا أو مرارة حماقاتنا، بحيث تبدو مغامرة الحياة أمرا جديرا بأن نكون جزءا منه، تدور كلتا التراجيديا والكوميديا حول ضعف الإنسان، ولكنهما في النهاية تبرهنان على قوة الإنسان. وإذا كان الإنسان يلذ له التشبه بالبطل، مهما تكن نقيصته أو مصيره المأسوي، فإنه يعجز في الكوميديا عن التوحد مع أية شخصية على المسرح، لكنه يلذ له في الوقت أن يتوحد مع المؤلف في ضرباته الساخرة الموجهة لما يدور على المنصة، وأن يستعير نظرتة ليرى بها العمل نفسه.

ولعل معرفة النفس تشكل الهدف النهائي لكل من التراجيديا والكوميديا. تسعى التراجيديا إلى هذا من خلال تصوير العطف والخوف، في حين تستخدم الكوميديا السخرية والمفارقة. ومن السهل الجمع بين أدوات كل من التراجيديا والكوميديا طالما أن الهدف هو معرفة النفس. والإرتياح الكوميدي دليل عملي على مقدرة الكوميديا

على وضع نفسها فى خدمة التراجيديا، كما أن التراجيديا يمكن أن
تضيف لمسات من الجلال والوقار إلى الكوميديا. فهذا من شأنه أن
ينوع الإيقاع، فليست هناك قاعدة ذهبية تفرض على الجمهور أن
يضحك طوال عرض الكوميديا، أو أن يبكى وينفعل طوال مشاهدته
للتراجيديا. إن تنوع الاستجابة الشعورية تجاه العمل يجعله أكثر حيوية
وأكثر قدرة على استيعاب كل متناقضات الحياة وألغازها المحيرة.

الفصل السادس

المرح والشخصية المصرية

يصور معظم مؤرخى الحضارة المصرية القديمة على أنها حضارة جادة إلى درجة العيوس وتقطيب الوجه، لكن الدراسات الحديثة تحاول أن تكشف عن جوانب جديدة غير تقليدية، وفي مقدمتها المرح والدعابة والنكتة، وذلك من خلال تتبع مسارات هذه العناصر من عصر إلى آخر. فالنكتة المصرية مثلاً تختلف فى أيام خوفو عنها فى أيام نفر كارع، كما تختلف عن الأسرات الأولى المستقرة عن الأسرات المضطربة وهكذا.

ويقول د. جون ويلسون، تلميذ بريستد وأستاذ الدراسات التاريخية والحضارية فى جامعة شيكاغو إن المصريين قوم مرحون، محبوبون للسرور ولا ينفى هذه الحقيقة أنهم شغلوا أفكارهم بالموت، فهم لم يكونوا

يخافون الموت، وإنما كان بالنسبة لهم تأكيداً لاستمرار الحياة. وربما كانت سرعة بديهتهم، وحبهم للنكتة، هما خير ما يدل على حبهم للحياة نفسها ودمائة أخلاقهم، وصفاء روحهم.

وفي قمة رخاء الدولة المصرية القديمة واستقرارها، كانت النكتة المصرية خفيفة، وتأتي عفواً، ولا تتطلب ضحكة صاخبة بقدر ما تثير ابتسامة عابرة، هادئة، متأملة. ففي «متون الأهرام»، مثلاً نجد نشيد آكلي لحوم البشر، وهو نشيد يهدد فيه الملك المتوفى بأن يلتهم البشر والآلهة ليعتصر لنفسه ما فيهم من قوة. والنشيد يسخر من شراة الملك الذي لم يستطع التخلص منها حتى بعد موته. يقول النشيد عن الآلهة الذين يريد الملك أن يلتهمهم:

«أكبرهم جميعاً لأجل وجبة أفكاره، والمتوسطون من بينهم لأجل غدائه، وأصغرهم جميعاً لأجل عشائه. أما العجائز من رجالهم ونسائهم فلأجل وقوده».

فالمالك يتميز بشراة لا بأس بها، كما أنه ملك اعتاد العشاء الخفيف خوفاً على معدته من التخممة وعسر الهضم. ولذلك على الرغم من شراة فإنه يفضل النوم خفيفاً بالتهام أصغر الآلهة في وجبة عشائه.

ويوضح شوقي ضيف في كتابه «الفكاهة في مصر»، أن أناشيد قدماء المصريين وأغانيهم ورسومهم وصورهم تدل على أنهم عاشوا في معظم عصورهم معيشة مبهجة. وإذا كنا قد فقدنا معظم نكتهم ونواذرهم فإن الرسوم التي خلفوها تفيض بروح الفكاهة. منها على سبيل المثال صورة هزلية لسيدة تتزين، وقد أمسكت المرأة بيدها اليسرى، وفي نفس اليد

«الحق، بصبغ الشفاء الأحمر، وفي اليد الأخرى ريشة تطلّى بها شفيتها، وكل ذلك فى وضع مضحك.

من هذه الصور أيضا صورة فكهة لشخص أصلع، أرسل لحيته ومد كفيه مدافعا عن نفسه، كأنه يمنع من يريد أن يخلق لحيته أو يصلحها. وصورة مضحكة لذئب يرعى ماعزا، وكأنها أصل تراثى لمثلنا العامى الذى يقول: «حاميه حراميه»، وصورة لمعركة بين القطط والأرز، ولجيش من الفئران يحاصر قلعة للقطط تقدمت منها فرقة فدائية، وعليها مدت سلما اعتلاه فأر فدائى كبير. كما أن هناك صورة تمثل مباراة فى لعبة الشطرنج بين أسد وغزال والغزال يأمر الأسد: كش ملك، والأسد مكش عن أنيابه والشرر يتطاير من عينيه.

وبذلك يكون قدماء المصريين روادا لفن الكاريكاتير. فمثلا رسم الفنان المصرى القديم صورة أمير وأميرة بلاد بونت وقد وقدا على الملكة حتشبسوت لتقديم فروض الطاعة والولاء، وفيها رسم الأميرة وقد تضخم نصفها الأسفل وتأخر فى وضعه عن النصف الأعلى، فأصبح شكلها مثيرا للسخرية والضحك. مما يدل على أن لخاصية الضحك على الغرباء، جذورا تمتد من العصور الأولى للحضارة المصرية القديمة حتى عصرنا هذا.

وكان المصريون القدماء يعهدون إلى أقزام الزنوج الذين يجلبونهم من البلاد الأخرى بخدمتهم، وفى الوقت نفسه يتخذون منهم مهرجين للهو واللعب معهم. وقد وجد علماء الآثار فى بعض المقابر مجموعة من الأقزام وبجانبيهم أحذب. وطريقة رسمهم بأسلوب الكاريكاتير تدل على

أنهم جميعا كانوا مهرجين فى بيت صاحب المقبرة للتسلية والترفيه عنه .

ومن السهل أن نعثرفى فكاهات قدماء المصريين على معان مطابقة
لأمثال عامية لا تزال تتردد على الألسنة حتى الآن دون أن ندري
أصلها القديم . فهناك حكمة مصرية عمرها ثلاثة آلاف سنة من تعاليم
الحكيم كامجنى، تقول: «لا تغضب بسبب الطعام إذا كنت فى صحبة
رجل جشع . لا تتردد فى أخذ أى شىء يعطيه لك ولا ترفضه، لأنه
يأمل بالفعل أن ترفضه» . وهذه الحكمة تتطابق تماما مع المثل العامى
القاتل: «شعرة من ذفن الخنزير مكسب» . ذلك أن المصريين على مر
العصور كانوا بالمرصاد لكل سلوكيات الجشع والشراسة، مستخدمين فى
ذلك أساليب متنوعة من السخرية والتهكم والفكاهة . فهناك مثلا قصة
فرعونية قديمة بعنوان «أعمال السحرة»، تضم شخصية مثيرة للضحك
والسخرية لرجل يدعى ددى، وهو رجل تصفه القصة بأنه من عامة
الشعب وعمره ١١٠ سنة، ومع ذلك يأكل خمسمائة رغيف فى اليوم،
وفخذ ثور، ويشرب مائة جرة من البيرة .

ولم يستطع ابن الملك حور أن يكبح جماح حب الاستطلاع عنده
فذهب ليشاهد هذا الرجل الأعجوبة، فوجده مستلقيا على حصيرة أمام
عتبة منزله، وأحد الخدم يمسحه بالزيت، والثانى يدلك قدميه . لم يملك
ابن الملك حور سوى أن يقول للرجل بعد أن شاهده وهو يأكل:

- برغم سنك المتقدمة .. فأنت فى سن الموت .. وسن الجنازة .. وسن
الدفن .. تنام حتى يطلع النهار .. وتلتهم كل هذا الطعام!

فما كان من الرجل سوى أن قال لابن الملك:

- كل البشر في سن الموت أيا كانت أعمارهم!! المهم التهام اللحظة
الراهنة حتى لا تفلت من بين أصابعك!

بل إن آلهة المصريين تضحك في مرح وسعادة عند موت أحد
ملوكهم وانتقاله إليهم، إذ إن «متون الأهرام» تصف آلهة الأرض وآلهة
السماء يضحكون بملء أشداقهم عند وصول الملك المتوفى نفر كارع
الذى جلب بوصوله الهدوء والسكينة بعد اضطراب وضجيج. يقول
النص:

- يضحك الإله جب، وتقهقه الآلهة توت أمام نفر كارع وهو يصعد
إلى السماء!

ويعلق جون ويلسون على ذلك قائلاً بأنه إذا كانت آلهة قدماء
المصريين تقهقه فأحرى أن يكون الضحك أكثر وأعم بين البشر.

وفي البداية كانت فكاهة المصريين حانية ومسلية ولطيفة تعتمد
على الدعابة الرقيقة التي تهدف إلى رسم الابتسامة على الوجوه. فهي
فكاهة غير لاذعة تصور تفاؤل المصريين في تلك العصور المبكرة.
لكن بمرور الزمن، وتدفق المتاعب التي غمرت بأموالها العاتية الحياة
المصرية، أصبحت الفكاهة أكثر حدة وإيلاماً ومرارة وذلك من خلال
انتقالها من الدعابة الرقيقة إلى السخرية الحادة والتهكم المرير. ولم تعد
قاصرة على الطرائف والعجائب الشاذة بل امتدت لتشمل الحياة
الاجتماعية والسياسية والاقتصادية من خلال إسقاطات لا تخفى على
أحد.

إن قطلا يرمى أوزاً سواء بالصورة أو بالكلمة، دعاية لازعة ساخرة بالحاكم المصرى القديم (الدولة الحديثة فى القرن الخامس قبل الميلاد)، ذلك أن القط البرى نوع من أنواع الحيوانات المفترسة التى ترى فى الأوز أشهى غذاء لها. فكيف يصبح القط البرى راعياً للأوز إذا لم تكن الدنيا قد انقلبت رأساً على عقب؟! ١

مثل هذه الأوضاع المقلوبة كانت مادة خصبة للرسام المصرى القديم الذى وجد فى الكاريكاتير الساخر خير تعبير عنها. ففى متحف تورينو يوجد رسم يعبر عن هذا المعنى بشكل آخر. فيه يرسم الفنان صورة فرس النهر (سيد قشطة) بكل ثقله وهو يجلس فوق شجرة، فى حين يسعى النسر جاهداً إلى الصعود على السلم بمنتهى الصعوبة برغم خفته وقدرته على الإنطلاق. ٢

وتكاد النكات التى تدور حول الطغيان تأخذ لوناً ساخراً وهازناً على الدوام، وإن اختفت وراء رمز شديد الوضوح والشفافية، أو لجأت إلى حيل التلاعب بالألفاظ. ففى التراث الشعبى الفرعونى يوجد نشيد ألف فى مركبة فرعون على أساس التلاعب بالألفاظ، إذ يحصى مؤلفه أجزاء المركبة ويسمىها، وفى كل مرة يذكر فيها اسم الجزء الخاص من أجزائها، يعود فيذكره مرة ثانية بمعنى آخر يصف به قوة فرعون. فالكلمة ذات معنيين ويستغلها صاحب النشيد فى تنويع الإيحاءات والتلميحات. ٣

وهذا النشيد دليل على تغلغل حيل التلاعب بالألفاظ حتى فى الأغراض الأدبية التى لا تحتاج إليها، وإنما لمجرد إظهار براعة المؤلف

فى استءءءامها. أءا فى مءال النكة والسءرية والتهكم فىءءول الءلاعء بالآلفاظ إلى منبع لا ینضب لشءن الكءمة الواءءة بشءنءین مءءلفءین. فالكاءب اللبق یسءفل الشءنءین فىورى بواءة منهما عن الأءرى؁ وبذلك فءءر ما فىها من عئاصر المفاءة والمفارقة والءوءع والهزل الءى ءءیر المءءك على مسءویاء مءءءة.

وبذلك یكون الشعب المصرى قء وءع یءه منذ أقءم العصور على هءه المفاءیء اللغوىة بكل ألاءبها؁ مسءغلا إیاءا للفاءة والمءءك والسءرية والتهكم. وهى ءلئل عملى على طبعءه المءرة ومزاجه المءفائل الءى یءفعه ءائما إلى الءعامل مع مشكلاءه من موءع القوء بءیء یءاءوزها ءون أن ءسءغرقه أو یقع ءء وطاءئها. یكفى أن المصریین القءماء سءلوا هءه النظرة المءرة على ءءران مقابرهم. فمءلا عءءما ءم اكءشاف مقبرة ءور مءب؁ وءء ءرفة منءوءة فى الصءر؁ وقء ءفن فىها كلب ءور مءب وقءه الأءیران عءه؁ مءقابللن وقء ءءء ءماس بین أنفیهما فى وءع مءءك. ومضء آلاف السنین قبل أن ءقع عین أءء من الناس على هءا الموءف المءءك الءى یءل على عءم اكءفاء المصرى القءیم برسم اللمءاء الفكاهیة على ءءران المقبرة؁ بل سعى إلى ءءسید بعض المواء المسرءیة المءاءكة وإن كائء ساكنة ىیر مءءركة.

ویقول ولیم نظیر فى كءابه «العاءاء المصریة بین الأمس والیوم» إن ءب المصریین القءماء للمرح والسرور لم یكن راءعا إلى الیأس الءى یسءولى على نفوسهم من رهبة الموء ولكن لأنهم سعاء لشعورهم

بالانتصار على التغيير الذى ينتج عن الموت نفسه . فالمرح هنا ليس هروبا سلبيا بقدر ما هو مواجهة ايجابية . لذلك آمنوا بالحياة المرحية التى كانوا يحيونها على الأرض . ورفضوا أى رأى يقول بانتهاء الحياة ، بدليل أن الموت نفسه لم يمنعهم من ممارسة المزاح الذى يتجلى فى المناظر والنقوش التى تركوها على جدران مقابرهم .

ومن الواضح أن المناظر والنقوش التى وجدت على جدران مقابر النبلاء فى عصرى الدولتين القديمة والوسطى لم تستغل الفكاهة للإقلال من كرامة صاحب القبر أو أسرته ، بل كانوا يرسمون دائما فى أوضاع تتميز بالوقار والقداسة والاحترام ، لكن لإيمانهم باستمرار الحياة بعد الموت فقد حرصوا على أن تواصل الحياة كل أنشطتها ومن بينها التسلية والمزاح والدعابة . فنشاهد أحد النبلاء يخطر على مهل ويصحبته قزم صغير يثير الضحك والتألى يضاعف من سمات الوقار والاحترام المحيطة بهيبة السيد ، وذلك من خلال المفارقة أو التباين بينهما . كما نشاهد منظرا لعامل فى الحقل وقد أخذ النوم يداعب جفونه وكأنه يسعى إلى الحلم بكل ما يفتقده فى الواقع ، أو نشاهد حمارا عنيدا يأبى أن يطيع أوامر سيده ، أو فردا مشاكسا أو شك أن يصيب صاحبه بالجنون . وأحيانا تتحول الفكاهة إلى سخرية كاريكاتيرية لاذعة مثلما نجد فى المنظر الذى يصور فردا يمسك بزمام خادم سيده ليضايقه .

ولا شك فإن الأوضاع المقلوبة وأساليب المفارقة كانت منبعها متجددا لروح الدعابة والسخرية التى تحمل فى طياتها أفكارا وإحساءات جادة للغاية ، مثل صورة الراعى ذو الجسم الهزيل والشعر الأشعث المتبدل ،

الذى يتكىء على عصاه لشدة ضعفه وهو يجاهد فى سيره ليحضر إلى سيده ماشية سمينة ملساء الشعر، أو صورة نجار السفن الشاب المتفجر بالقوة والحيوية ومع ذلك لا يستطيع مواصلة عمله للثرثرة التى يفرضها على أسماعه رجل عجوز مترهل الجسم.

ولم تفت عين الفنان المصرى القديم اللامحات والتفاصيل الدقيقة التى تقدم صورة عريضة للمجتمع بكل ما يحمله من صراعات وحيل من أجل لقمة العيش. ففي مقابر طيبة منظران من الأسرة الثامنة عشرة، الأول يصور أحد مناظر الحصاد وفيه فتاتان تجمعان بقايا الحصاد وقد اشتبكنا فى عراقك بالأيدى، وأخذت كل منهما تشد شعر الأخرى فى منافسة محمومة لخطف بعض تلك البقايا، فى حين انهمكت فلاحه فى إخراج شوكة من قدم زميلتها وأمامهما جعبة بذر الحبوب، كما انهمك غلام فى قذف سباطة النخيل بالأحجار محاولا اسقاط البلح.

أما المنظر الثانى فهو رسم فكاهى لرئيس قناصى الطيور بتاح موسى وهو يضع يده على فمه ليخفى ضحكته وأمامه بضع بجعات وإناءان بهما عدد كبير من البيض. ويبدو أنه لا يريد أن يزعج البجع بضحكته، ولذلك جلس فى حرص شديد فى مشهد فكاهى تجلى فى رأسه الأصلع ويطنه المتكور، تماما مثلما يفعل رسامو الكاريكاتير الآن. ذلك أن نظرة الفنان الساخرة تجاه الشخصية المرسومة واضحة.

وتتوالى المناظر الساخرة فنشاهد فى أحدها مريضا يجلس على الأرض وقد أمسك أحد الأطباء بقدمه ليعالجها، فى حين يصيح

المريض ويصرخ عندما يمسه الطبيب: «إياك أن تؤلمنى، فيأتى رد الطبيب ساخرا متهمكما: «سألبنى رغبتك يا سيدى». ولذلك فانهم كانوا يعلقون على رسومهم الكاريكاتيرية ببعض الكلمات التى تزيد من جلاء الصورة شكلا ومضمونا، وأحيانا أخرى كانت الصورة بدون تعليق.

وفى المثل الذى سبق أن ذكرناه عن النقش البارز الموجود فى المتحف المصرى والمأخوذ من معبد الملكة حتشبسوت بالدير البحرى بطيبة بالأقصر، نجد تعليق الفنان ساخرا متهمكما فوق الصورة البارزة التى تمثل ملكة بلاد بونت (الصومال واليمن) وكانت مفرطة فى البدانة والتشويه والترهل فى حين تبعها عبيد يحملون الهدايا وهى قادمة لتقديم فروض الطاعة والولاء لملكة مصر. وقد ركبت حمارا صغيرا تحت هذه الكلمات المنقوشة: «الحمار الذى يحمل زوجته، تحقيرا لملك بونت.

وقد اشتهر عصر أخناتون بمحاكاته صور الطبيعة بأسلوب كاريكاتيرى هازل. فلم يتورع الفنان فى أن يرسم الملك نفسه وقد نبت شعر لحيته بصورة مقززة. كما نشاهد احدى لعب الأطفال وقد استمدت فكرتها من المناظر التى تمثل الملك وهو يقود عربته وقد أخذت إحدى الأميرات الصغيرات تستحث الجياد بعصاها. فى هذه اللعبة نموذج لعربة يجرها قردان فى حين جلس عليها قرد ثالث يستحث القردين اللذين يقومان بدور الجوادين. ومن الواضح أن جبهة القرد القائد تنحدر إلى الوراء مثل جبهة الملك تماما، فى حين وقفت إلى جوار القرد قردة فى مكان الأميرة وهى تلخص القردين اللذين يجران العربة لكنهما يجمحان ويرفضان أن يتزحزحا قيد أنملة.

ومن الواضح أن هذا الرسم الكاريكاتيرى يعبر بمنتهى السخرية عن أزمة الحكم التى تورط فيها أختاتون بعد اعتناقه عبادة آتون ورفضه الاستمرار فى عبادة آمون الذى وقف كهنته صفاء واحدا ضده حتى لا تتفتت الإمبراطورية المترامية الأطراف نتيجة للسلام المطلق الذى نادى به أختاتون فى مواجهة المحاولات المسلحة التى سعت إليها الجماعات الانفصالية. ونظرا للصراع الذى اشتعل بين أختاتون وبين كهنة آمون بكل ثقلهم الدينى والاجتماعى والاقتصادى والسياسى، فإن عجلة الحكم كفت عن الدوران تماما مثل العربة التى جمح قرداها ورفضاً أن يتزحزحاً قيد أنملة.

وهذا يوضح مدى إلحاح روح الفكاهة والسخرية وسيطرتها على الفنان المصرى القديم لدرجة أن العظمة المقدسة التى كانت تحيط بالإله الملك لم تستطع أن تكبح جماحها، وتجراً على السخرية منه وتعرض لحياته الأسرية فنزل به إلى مستوى البشر العاديين. مما يؤكد أن التقديس لم يكن يمنح للفرعون دون شروط، فإذا أخل بهذه الشروط، وتعثرت عجلة الحكم، وتفاقم الأمر، فإنه من السهل أن يصبح معرضاً لسهام السخرية والتهكم.

وفى عهد رمسيس الثالث شاعت المناظر الهزلية التى تسرى فيها روح المرح والدعابة الخفيفة والسخرية من كل ما يعوق حركة الإنسان وتقدمه نحو حياة أفضل، بل إن السخرية شملت شخصية الفرعون نفسه. حتى وهو يخوض معارك الأمة المصيرية ويحارب أعداءه. فقد صوره الرسام قطاً كبيراً فى قتال شرس بين القطط والفئران. ومن

المناظر الهزلية التى اشتهر بها هذا العهد، منظر سرب من الأوز يقوده
فهد يحمل على كتفيه قفصا به طعام وإناء به ماء، وكذلك رسم هزنى
للذئب وهو يرعى الغزلان، وآخر على ورقة من البردى محفوظة فى
المتحف البريطانى بلندن يمثل حيوانات تقوم ببعض أعمال الإنسان،
وآخر يصور فرس النهر وقد ركب شجرة واستقر بين أغصانها فى حين
سعى إليه الذئب على معراج من خشب، ويسمع الدنيا مقطوعات الغناء
والأناشيد على أنغام الموسيقى من أفواه البهائم والوحوش، فيجعل
القيثارة بيد الحمار وهو يطلق صوته بالغناء، ويجعل العود بيد السبع وقد
أخذ يردد النغم خلف الحمار، ويجعل الرباب بيد التمساح، والمزمار بقم
القرد كى تغنى هذه الجماعة بأنكر الأصوات.

ويوضح ولیم نظیر أن الأدب المصرى القديم كان زاخرا بالفكاهة
والدعابة والتلاعب بالكلمات الذى قصد به تأثيره الدينى السحرى عند
النطق بها. كذلك امتلأ الأدب الدينى المصرى بالتورية التى كان
بعضها متعمدا والبعض الآخر يعتمد على التشابه فى الألفاظ للتدليل
على إichاءات دينية. وكان الهدف الأساسى من التلاعب بالكلمات،
الترفيه عن نفوس الآلهة والبشر.

وكانت عناصر الفكاهة والدعابة مرتبطة بالطبيعة السمحة للشخصية
المصرية. فلم يقس المصريون القدماء على أنفسهم فيأخذون أمورهم
الحياتية بصرامة وجهامة، ويظنون أن الكون سينهار إذا وقع شئ من
الانحراف عن المعتاد. فمثلا كانوا يتسامحون إذا ظهر أحد الملوك ضعفا
بشريا برغم عقيدتهم الراسخة بشأن ألوهية الملك. كانوا أيضا متفائلين

لإيمانهم الدفين بأن مصر بلد سعيد ومحفوظ ومبارك. وأيضاً مرتين في استيعاب ظروف الحياة، إذ كانوا يرفضون أن يتبعوا اتباعاً أعمى ما يضعونه من مبادئ وبالتالي يتعنتوا في تطبيقها.

هكذا كانت مصر الفرعونية تضحك، فلما دهاها ما دهاها من غزو الفرس واليونان والرومان لها ذهبت تنفس عن عذابها ومرارتها وكآبتها بفكاهات مرة لاذعة زاخرة بالتهكم والسخرية. فعلى الرغم من أن البطالسة توددوا إلى المصريين ليكسبوا عطفهم وولاءهم، وينالوا حبهم، فإذا بهم: خاصة أهل الاسكندرية، لا يتركون فرصة تمر بهم دون أن يصيبوهم بسهام التهكم المسموعة، ويطلقوا عليهم الألقاب الماجنة مثلما لقبوا بطليموس الأول بلقب الزمار، وكان بطليموس الثاني ضحية نكاتهم الفاحشة خاصة عندما تزوج من أخته.

ويبدو أن خاصية السخرية اللاذعة والنكتة الخبيثة كانت واضحة للغاية، لدرجة أن ثيوكريتاس الشاعر اليوناني الذي عاش في الاسكندرية في القرن الثالث قبل الميلاد أشار إلى هذه الخاصية المصرية الصميمة بكل ما يرتبط به من فكاهة لاذعة وسخرية مريرة عندما قال: «إنهم شعب مكرر، لاذع القول، روحه مرحة».

وفي العصر الروماني لم يسلم الرومان من سهام السخرية المصرية برغم بطشهم وقسوتهم مع كل من تسول له نفسه أن يعارضهم أو يتحداهم. فلم يترك المصريون قيصرًا زار مصر من قياصرتهم دون أن يستقبلوه بوابل من سهامهم الحادة المسموعة بالكلمات الجارحة والنكات اللاذعة والقفشات المرة. وكانوا أحياناً لا ينتظرون حتى يفد عليهم

القيصر، فيسرعون إلى تصويبها نحوه من بعيد كما واصلوا لعبة إطلاق الألقاب الساخرة الهازئة مثلما لقبوا القيصر فسبسيان بلقب تاجر السردين، ونادوا بأن سعره لا يساوى ستة مليمات، وكذلك لقبوا قيصرًا آخر بلقب النسناس المدلل الصغير.

واستمر المصريون فى ممارسة سخريتهم الخبيثة برغم أنها كلفتهم أحيانا ثمنا غاليا. فقد كانت النكات والقفشات تصل إلى أسماع القياصرة فيغتاضون غيظا شديدا يتمثل فى أشنع أنواع القسوة والإرهاب، إذ أنهم كانوا يعتقدون أن أبناء المستعمرات قد خلقوا لخدمة الامبراطورية الرومانية وليس لهم أن يفتحوا أفواههم بالمعارضة كما يفعل مواطنو روما نفسها. ومع ذلك لم يتراجع المصريون عن استخدام الهجاء والسخرية بحكم أنها الأسلحة الوحيدة المتاحة لهم للدفاع عن كياناتهم وشخصيتهم.

وقد كشفت الحفريات عن بردية من العصر القبطى، تصور ثعلبا يركب ظهر ماعز وقد أمسك بالعصا فى يده. والمعروف أن الثعلب عدو الماعز الذى يأكله ان شرد عن القطيع، فكيف يتم الصلح بين العنزة والثعلب؟! من الواضح أن هذه النكتة الساخرة ترمز إلى حال مصر مع الرومان حين كان الحاكم هو الثعلب، والشعب هو الماعز الذى يتلقى الضرب بالعصا ثم يلتمه الحاكم فى النهاية. ولم تكن هذه النكات بأقل قسوة على كاهل الحاكم من سياطه هو نفسه على ظهر الشعب.

وفى العصر الرومانى، حرم الرومان على المحامين المصريين المرافعة فى محاكم الاسكندرية، لأنهم كانوا يهدفون إلى اسقاط هيبة

القضاء الرومانى بالمزاح والدعابة، فى أثناء طرح القضية وشرحها والدفاع عن موكلهم، ومن الطبيعى أن فرحة واحدة، أو فكاهة خفيفة، ما كانت لتدفع الحكم الرومانى إلى اتخاذ القرار المتعنت، وإنما جاء القرار بعد موجة من التكتيك التى صنعت بحرا غرقت فيه هيئة القضاء الرومانى.

وحتى فى أيام العصر المسيحى عندما بلغ اضطهاد الرومان للمصريين قمته، وفروا إلى الكهوف والأديرة بدينهم، نجد نكتة كتبها أحد المصريين لراهب، سجلها وليم رول الأستاذ بجامعة ميشيجان فى كتابه «موجز تاريخ الأقباط»، وكانت محفورة على قطعة من الشقف، وتوضح أن بعض الذين هربوا إلى الأديرة كانوا فارين من الديون التى عليهم أساسا. فالبشر هم البشر فى كل زمان ومكان. يقول الرجل للراهب فى خطابه إليه:

«أخبرك أن الأمر أصبح شائنا بل شائنا جدا. إنك تعذب نفسك فى الصحراء ولكن الدائن يعذبنى أنا هنا. لقد مضى الموعد الذى يجب أن تدفع فيه، وقد رجوته أن يمهلك لمدة عام، وها قد مضى عام ونصف منذ ذهابك. إننى متدهش لك كثيرا».

ولا شك أن عناصر الفكاهة والمرح والسخرية والتهكم فى الشخصية المصرية دليل على الذكاء واللماحة ورهافة الحس والشعور والذوق وسرعة البديهة وحضور الذهن والقدرة على اللعب بالألفاظ واستخراج ما فيها من معان مأكرة وأفكار خبيثة عن طريق التورية. وترسخت هذه العناصر بمرور الزمن فإذ بالسخرية خاصية ملازمة لكل تجمع

مصرى، ولا بد أن يسعى أحد أعضاء هذا التجمع أو أكثر إلى أن يصبح
نجمه بنكاته اللاذعة ولماحيته الحادة، وغالباً ما يسعد المصرى عندما
يطلق عليه الآخرون لقب «ابن نكتة»، فهذا دليل التميز والذكاء والعقل
الناضج والجاذبية الآسرة. ومن هنا كان حرص المصريين على عناصر
المرح والفكاهة والسخرية فى حياتهم اليومية مهما كانت الضغوط
المحيطة بهم، إذ إنه من الصعب تصور الشخصية المصرية بدون هذه
العناصر الحيوية المشكّلة لها.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٢٠٠٠/١٠٢٣٢

I.S.B.N 977 - 01 - 6740 - 1